مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الأول	المحرم سنة ١٣٥٩	المجلد الحادى عشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراكات عن سنة

	مليم
داخل القطر	٢٠٠
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ...	١٠٠
خارج القطر	٣٠٠

ثمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر — ١٩٤٠)

١٠

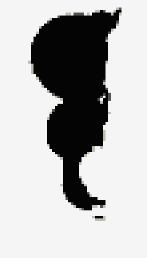

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة الحادية عشرة لمجلة الازهر

الحمد لله الذي جعل للحق أعلاما تدل عليه ، وسخر له ألسنة من خلقه تهدي اليه . والصلاة والسلام على المثل الأكمل للفطرة الإلهية ، والمظهر الأجمل لجميع الكمالات الخلقية ، محمد خاتم رسله الأكرمين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .

أما بعد : فاننا نفتتح بهذا العدد المجلد الحادي عشر لمجلة الأزهر ، راجين الحق جل وعز أن يمدنا من عونه بمثل ما أمدنا به في المجلدات السابقة . فانْ كنا قد أحسنا في القيام بما أسند إلينا ، فانما يرجع ذلك الى إمداده وتوفيقه ؛ وانْ كنا نَعِد قراءنا بالمثابرة على عملنا ، وبالدؤوب على زيادة تحسينه بمستأنف البحوث ، ومستطرف الموضوعات ، فانما نفعل ذلك استنادا الى فضله ، واعتمادا على إحسانه .



وإننا وجميع من يعاوننا من أجلاء العلماء ، وكرام الكاتبين ، نجدد عهدنا لحضرات القارئين ببذل الوسع في الاضطلاع بما نُدبنا له من إبلاغ رسالة الأزهر الى العالم الاسلامي كافة ، وخدمة أصول هذا الدين بما يصل اليه جهد العلم من التدليل والتدعيم ، ودحض الشبهات التي يثيرها خصومه أينما كانوا ، وتحت أي مظهر ظهروا .

ونحن إذا ذكرنا الأزهر ، وجب علينا أن ننوه بما لقيه ويلقاه هذا المعهد التاريخي الفخم من رعاية الأسرة العلوية وحمايتها ، وخاصة من فرعي دوحتها الجليلين : المغفور له الملك فؤاد ، ونجله حضرة صاحب الجلالة الفاروق ، الذي أحيا سيرة السلف الأولين بما جرى عليه من التقاليد الصالحة ، والسنن القيمة . حفظ الله وجوده عزا للدنيا والدين ، وأمتع بفضائله وكالاته المسلمين .

ولا بد من إلمامة في هذا الموطن بما يبذله حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخه الأكبر ، فإنه بما يقوم به فيه من إصلاح وطيد ، وما يستنبته في بيئته من غراس طيب ، يُعدُّه لدور انتقال يصبح معه أفخم في الأعين مظهرا ، وأعم في تمثيل رسالة الاسلام أثرا .

وإنه ليسرنا أن نفتتح عدد هذه السنة بدرس ديني لفضيلته ألقاه في رمضان في حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، وفي حشد من رجال دولته ، وهو كجميع دروس فضيلته غذاء للأرواح والعقول . أمد الله فضيلته بروح من عنده ، وأيده بمدد من جنده ؟

محمد فريد وجدي

تفسير سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

الدرس الأول الذى ألقاه فضيلته فى رمضان سنة ١٣٥٨
بمسجد الأستاذ البوصيرى بالاسكندرية

وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم



بسم الله الرحمن الرحيم

(يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

تقدموا : يصح أن يكون من قدّم المتعدى ، أو من قدّم بمعنى تقدم . وعلى الثانى يكون معناه : لا تتقدموه . وتحقيقه ـ كما قال الراغب ـ لا تسبقوه بالقول والحكم ، بل افعلوا ما يرسمه لكم ، كما هو شأن عباده المكرمين من الملائكة : لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . وذلك لازم التقدم ، لأن الذى يجعل لنفسه حق التقدم على أحد ، يجعل لنفسه حق إبداء الرأى والسبق به ، وحق المخالفة . وحكى ابن جرير أن العرب تقول : فلان يقدم بين يدى إمامه ، على معنى يعجل بالأمر والنهى دونه . وعلى الأول إما أن يلاحظ تعدّيه الى مفعول محذوف لقصد التعميم ، ومعناه حينئذ : لا تقدموا شيئاً ما بين يدى الله ورسوله ، قولا أو فعلا ؛ وإما أن ينزل منزلة اللازم ، ومعناه : لا يحصل منكم تقديم ، غير منظور إلى أن المقدم ماذا ، على طريق قوله تعالى : « يحيِى ويميت »



ومآل المعنى على الوجوه كلها : النهى عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله تعالى وسنة رسوله . وقد نقل عن ابن عباس : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة . وهو معنى قول الله سبحانه : « وما آتاكمُ الرسولُ فخذوه ، وما نهاكمْ عنه فانتهُوا ، واتقوا اللهَ ، إنّ اللهَ شديدُ العقاب » .

ومعنى « بين يدى الله » : أمامه ، لأن المكان الذى بين العضوين المعروفين هو الأمام . وحقيقة قولهم : جلست بين يدى فلان ، أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله حتى ينظر اليه من غير تقليب حدقة . وذكر الرسول ، باعتبار أنه المبلغ المبين ، الحافظ للشريعة ، والمدافع عنها .

« واتقوا الله » : أى اجعلوا وقاية بينكم وبين سخطه وعذابه ، وهى اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، والوقوف عند الحدود التى بيّنها .



والسميع : إذا وصف به الله سبحانه كان المراد به علمه بالمسموعات وتحريه المجازاة بها . وكل موضع أثبت الله فيه السمع للمؤمنين ، أو نفاه عن الكافرين ، أو حث عليه ، فالقصد به الى تصور المعنى والتفكر فيه والاعتبار به ، نحو « الذينَ يَستَمِعون القولَ فيتَّبِعون أحسَنَه (١) » ، « وإنْ أحدٌ من المشركين اسْتَجارَك فأَجِرْه حتى يسمعَ كلامَ اللهِ (٢) » ، « إنّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يسمعون (٣) » « ولَهُمْ آذانٌ لا يسمعون بها (٤) » . والله يعلم المسموعات ، ويعلم المراد منها ، ويعلم ما فى الضمير ، وما توسوس به النفوس ، لا تخفى عليه خافية .

وهذه الآية تقرر أصلا عظيما من أصول الاسلام ، وهو أن الحكم لله وحده ، لامعقّب لحكمه ، وهو أحكم الحاكمين . ويقرر هذا الأصلَ أتم تقرير قولُه تعالى : « فَلاَ وربِّك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَر بينهم ثم لا يَجِدُوا فى أنفسهم حَرَجاً مما قَضيتَ ويسلموا تسليما (٥) » وقولُه تعالى : « ولا تقولوا لِمَا تَصِفُ ألسنَتُكم الكَذِبَ هذا حلالٌ وهذا حرام لِتفتَرُوا على اللهِ الكَذِبَ ، إنّ الذين يفترون على اللهِ الكَذِبَ لا يُفلحون . مَتاعٌ قليلٌ ، ولهم عذابٌ أليمٌ (٦) » ، وقوله تعالى : « يَاأَيُّها الذينَ آمنُوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولى الأمْرِ مِنكم ، فإن تنَازعتم فى شىء فرُدّوه إلى الله والرسولِ إن كنتم تؤمنون باللهِ واليومِ الآخِرِ ، ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً (٧) » . وطاعة الله سبحانه هى العمل بما فى كتابه ، وما بينه رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وطاعة الرسول فى الحقيقة طاعة لله ، وذكر باعتبار أنه مبلغ ومبين . أما أولو الأمر فهم الذين يفهمون كتاب الله ويستثمرونه فى الحوادث ، ويفهمون سنة رسوله القولية والفعلية ؛ فهم قادة الأمة فى الدين ، الذين يدركون أسراره ، ويفهمون أغراضه ، ويحيطون بأحوال زمانهم وأمتهم إحاطة تمكنهم من تطبيق الكتاب والسنة تطبيقا صحيحا ، ومن الاجتهاد لاستنباط الأحكام المحققة لمصلحة الأمة ، فى دائرة الكتاب والسنة ؛ وذلك معنى الرد الى الله ورسوله . وعلى هذا جرى سلف الأمة ، واستثمر

(١) الزمر : ١٨ (٢) التوبة : ٦ (٣) النحل : ٦٥ (٤) الاعراف : ١٧٩ (٥) النساء : ٦٥
(٦) النحل : ١١٦ ، ١١٧ (٧) النساء : ٥٩

العلماء نصوص الكتاب والسنة ، ووضعوا قوانين الدولة الاسلامية كاملة فى زمانهم ، ولم يكن لهم شهوة فى الخلاف ، بل كانت وجهة الجميع بيان أحكام الله حسب اجتهادهم الخالص لله ؛ لكن الأحداث غيرت مجرى الأمور ، وحب الجاه والسلطان لوى الناس عن الحق ؛ وكان أصحاب الأهواء يحاولون رد أهوائهم الى الدين ليقال إنهم على الحق ، غير خارجين على حدود الله ، فتعسف الناس فى التأويل ، وجدّت مذاهب وآراء تبرأ منها اللغة ، ويتجافى عنها الدين ، وتعصب لها أصحابها ومقلدوها ؛ تعصب لها أصحابها على علم بضلالها ، وتعصب لها مقلدوها على علم أو جهل وحسن نية ، فتفرق المسلمون فرقا وأحزابا ، تحمل كل فرقة ضغنا على مخالفيها ، وتجيز قتالها وهدمها ، ولم يكن مثل هذا معروفا فى صدر الاسلام ، وعند صالحى الأمة وكبار الأئمة .



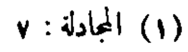
جرت الأمور على هذا النحو ، فضعف شأن المسلمين ، وقاتل بعضهم بعضا ، ثم وهنت العزائم ، وأحبوا الحياة ، وتحللوا من الأوامر والنواهى الإلهية ، إما بالخروج عليها ظاهرا جهارا ، وإما بالخروج عليها تأويلا ، وتقطعت بينهم الروابط ، ونسوا الوحدة ، ونسوا لوازم الأخوة الاسلامية التى عقدها الله فى كتابه بين المسلمين .

هذا شأن المسلمين اليوم ، وقبل اليوم بقرون ؛ ولا نجاة لهم إلا بالرجوع الى الله ، وتفهم كتاب الله ، والعمل بما سنّه رسول الله . ومن الخطأ كل الخطأ أن يظن ظان أن تأخر المسلمين نشأ عن دينهم ، كلا ! فإن فى دينهم من الأخلاق الكاملة الفاضلة ، ومن الحث على العلم ، ومن الأمر بتسخير ما خلقه الله للإنسان ، ومن النظم الدقيقة للمجتمع ، ومن الأوامر التى تحث على البذل والصدقة ، والتضحية فى سبيل الحق — ما لا يوجد عند غيرهم . ومن الحق أنهم تركوا دينهم فذلوا ، وتركوا هدى الرسول فضلوا . ولعل العبر الماثلة الآن تفتح عيون المسلمين ، وتبصرهم أن الخروج عن الأديان ، واتباع المذاهب الضالة ، هو سبب ما فى العالم من شرور قد تطوح بالإنسانية الى الدرك الأسفل ، كما تطوح بأصحابها فى الآخرة الى النار .



لعل هذه العبر توقظ النائم ، وتنبه الغافل ، وتحرك الجامد ؛ ولعل نفحة من قِبَل الله تهب فتعدهم لتلقى النور الإلهى ، وتحملهم على الرجوع الى الهدى النبوى ، وما ذلك على الله بعزيز .

وجملة « بين يدى الله » : تدل بعد ما تقدم على الحضور ؛ والله سبحانه حاضر دائما مع العباد : « مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١) »


(١) المجادلة : ٧

وإذا عرفت أن الآية جاءت لتقرير أصل من أصول الاسلام عظيم ، وبيان مايجب من الأدب مع الله سبحانه ، فلا يعنينا بعد ذلك أن نبين سبب النزول ، وأن نذكر أنها نزلت فى مماراة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فيمن يكون أمير وفد تميم ، أو فى ذبيحة الأضحية ، أو فى النهى عن صوم يوم الشك ، أو فى غير ذلك .

وبضم التاء فى « تقدموا » قرأ قراء الأمصار . وقال ابن جرير : لا أستجيز القراءة بخلافها لإجماع الحجة من القراء عليها . وقرأ بعضهم « لا تَقَدموا » بفتح التاء ، على معنى لا تتقدموا .

***

(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) :

ظهور الشىء بإفراط لحاسة السمع أو حاسة البصر : جهر . فمن الأول : « سواء منكم من أسرَّ القولَ ومَن جَهَر به (١) » ، ومن الثانى : رأيته جهارا ، و « أرنا الله جهرة » .

والحبْط : مأخوذ من الحبَط ، وهو أن تكثر الدابة من الأكل حتى ينتفخ بطنها . وفى الحديث « إن مما يُنبت الربيعُ ما يقتل حَبطا أو يُلم » .

وحبوط الأعمال على أضرب :

أحدها : أن تكون الأعمال دنيوية لا يؤمن صاحبها بالله واليوم الآخر ، فلا تغنى فى الآخرة شيئا ، كما فى قوله تعالى : « وقَدِمْنَا الى ما عَمِلوا من عَمَل فجَعَلناه هَباء مَنْثوراً (٢) » .

والثانى : أن تكون أعمالا أخروية لم يقصد بها وجه الله ، كما روى أنه « يؤتى يوم القيامة بالرجل فيقال له : بم كان اشتغالك ؟ فيقول : بقراءة القرآن ، فيقال له : قد كنت تقرأ ليقال هو قارئ ، وقد قيل ذلك ، فيؤمر به الى النار » .

والثالث : أن تكون أعمالا صالحة ولكن توجد بإزائها سيئات تطغى عليها .

كانت الآية السابقة لبيان الأدب مع الله ، وهذه الآية وآيات بعدها لبيان الأدب مع النبى صلى الله عليه وسلم . فقد أمر الله المؤمنين ألا يجعلوا أصواتهم عند الحديث مع الرسول الأكرم

(١) الرعد : ١٠ (٢) الفرقان : ٢٣

مرتفعة فوق صوته ، وألا يكون خطابهم إياه كخطاب بعضهم بعضا فى الجهر وعلو الصوت . وقد قيل إن الأول يخص حال المكالمة ، والثانى حال صمته عليه السلام ؛ وكأنه قيل : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ، ولا تجهروا له عند دعائه إذا سكت وتكلمتم . ويلزم من هذا كله أن يكون صوتهم أخفض من صوته ، وأن يراعوا فى دعائه ومخاطبته اللين فى القول ، أدبا مع مقام النبوة وجلالها . ولعل وجهه أن النهى عن رفع صوتهم فوق صوته صلى الله عليه وسلم يستلزم حتما ألا يكون خطابهم معه كخطاب بعضهم بعضا ، فلو لم يحمل أحد النهيين على حالة ، والآخر على حالة أخرى ، لزم التكرار ، وأن يكون الثانى تأكيدا . والظاهر أنه لا داعى الى هذا ، لأن الأول أفاد النهى عن رفع الصوت فوق صوته ، وهو وإن تضمن ما تضمنه الثانى ، لكن الثانى يفيد دلالة أن مقامه ليس كمقامهم ، وأن ما يليق بهم فى التخاطب لا يليق به ، وأن الخطاب معه يجب أن يكون على حال من الأدب واللين والرقة يناسب ذلك المقام الرفيع الشأن .



نهوا عن ذلك مخافة بطلان أعمالهم ، وذهابها سدى من غير مثوبة ولا جزاء ، من حيث لا يشعرون أن أعمالهم حابطة ، وذلك لأن النهى جعل الجهر معصية ، لكن العادة قد تجعل الانسان غافلا عما فى المنهى عنه من سوء ، وبخاصة إذا كانت العادة متأصلة ؛ وقد كان القوم جفاة غلاظا قريبى عهد بالتبدّى ، ومن عادة التبدى الجفاء فى الخطاب ، والإغلاظ فى القول .

أدّبهم الله بهذا الأدب ، ونهاهم عما يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن النبي جبارا ولا متكبرا ، بل كان جم التواضع ، كثير الحياء ، تقفه الأمَة فى الطريق لتحدثه فلا يتركها حتى تتركه ، وقال : «إنما أنا ولد امرأة كانت تأكل القديد» ، لكن الرسول الأكرم كان كثير الفكر والهم ، كثير الشواغل ، يتلقى الوحى من ربه ويبلغه ويبينه ، ويسوس المسلمين دنيا وأخرى . يفكر فى عزتهم ودفع الأذى عنهم ، ويفكر فى حرب من يحاربه ، وسلم من يسالمه ، ويفكر فى توفير الخير للمسلمين ؛ وهو مع ذلك كله بشر تؤذيه الغلظة وتقلق خاطره ، ومَن كان هذا حاله ، وجب أن يوفر له الهدوء والسكينة ، وأن يباعد عنه كل شىء مشوش للخاطر .

أدبهم لله هذا الأدب مع الرسول ، ونهاهم عن الغلظة ؛ ومن شأن النهى أن يردعهم ، وأن يمكن فيهم عادة اللين والأدب فى القول ، وأن تطرد تلك العادة معه ومع غيره ؛ فهذا الأدب كما أنه أدب مع الرسول ، هو أدب مع المؤمنين بعضهم مع بعض . ولا تجد رجلا لين القول سهلا عند الحديث إلا وهو ذو نفس مهذبة ، صقلته الأيام ، وفاض عليه طيب عنصره وكرم أرومته مما جعله محببا عند الناس .

وعلى العاقل أن يرعى أخلاقه ، ويداوم على التنبه اليها ؛ وقد يكون ارتكاب

محرماً داعيا الى استمرائه والاسترسال فيه ، فتكثر السيئات ، وتحبط الأعمال من حيث لايشعر . فالرذيلة تكون أولاً حالاً ، ثم تصير ملكة ؛ وكذلك الفضيلة . وقد نقل عن أفلاطون : لا تصحب الشرير فان طبعك يسرق وأنت لا تدرى . وقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه بعد نزول هذه الآية قال : يارسول الله : والله لا أكلمك إلا السِّرار أو أخا السرار حتى ألقى الله ! وكان إذا قدم على رسول الله الوفودُ ، أرسل اليهم من يعلمهم كيف يسلمون ، ويأمرهم بالسكينة . وقد روى أيضا أن ثابت بن قيس بعد أن نزلت الآية ، جلس فى بيته يبكى ، وقال : إنى رجل جهير الصوت ، وأخاف أن يكون قد حبط عملى ! فبعث اليه صلى الله عليه وسلم وقال له : إنك لست من أهل النار ، تعيش بخير ، وتموت بخير . وقد مات شهيدا ، رضى الله عنه .

***

(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) :

الغض : النقصان من الطرف والصوت ، ومنه « قل للمؤمنين يَغُضُّوا من أبْصارِهم(١) » « واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ (٢) »

والامتحان فى الأصل : إذابة الذهب ليخلص إبريزه من الخبث وينقى منه . ويطلق الامتحان على الاختبار والتجربة ، يقال : امتحن فلانا لأمر كذا فوجده قويا عليه ، أى جرّبه ؛ ويلزم من هذا معرفته .

تضمنت الآية السابقة التحذير من رفع الصوت ، وتضمنت هذه الترغيبَ فى القول اللين ، فقد جعل جزاؤه المغفرة والأجر العظيم . والمعنى : إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قوم أخلص الله قلوبهم وصفاها وأعدها للتقوى ؛ أو عرف الله قلوبهم معدة للتقوى بعد الاختبار ، فهؤلاء لهم مغفرة وصفح عما اقترفوه من السيئات ، ولهم أجر عظيم على ما كسبوه من الصالحات .

***

(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) :

(١) النور : ٣٠ (٢) لقمان : ١٩

الحجرة : القطعة من الأرض تحجر ، أى يمنع من الدخول فيها بحائط أو نحوه . ووراء : فيه معنى المواراة والاستتار ، فكل ما استتر فهو وراء ، خلفا كان أو قداما ، إذا لم تره ؛ فالوراء بالنسبة للحجرات : ما كان خارجها .

وقد أخرج البخارى فى الأدب عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغشاة من خارجها بمسوح الشعر . وعن الحسن : كنت أدخل بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدى ، وقد أدخلت فى المسجد فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وبكى الناس لذلك . وقد قال سعيد بن المسيب إذ ذاك : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ليراها النشء من أهل المدينة ، ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك داعيا الى ترك التفاخر والتكاثر .

وعن زيد بن أرقم : جاء أناس من العرب الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا الى هذا الرجل ، فإن يكن نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يكن ملكا عشنا فى جناحه ؛ ثم جاءوا الى حجر النبى ينادونه : يا محمد ، فأنزل الله هذه الآية ؛ وقد تأذى الرسول صلى الله عليه وسلم من ندائهم على هذه الصفة .

وقد حكم الله على أكثرهم بعدم العقل ، إما لأن فيهم من لم يكن موافقا ، أو لأنه أقام الأكثر مقام الكل ، على عادة البلغاء فى عباراتهم . وعدم العقل جاء من ناحية الجهل بقانون الأدب فى النداء ، والجهل بما ينبغى أن يكون عليه الطالب ، من تخير الوقت ، وتخير المكان ، وتخير العبارة . وقد كان عليه السلام لا يحتجب عن الناس إلا حيث تتقاضاه دواعيه الخاصة فى بيته ، فليس من الحق ولا من الأدب ألا تترك له الفرصة للاستجمام .

ولو أن هؤلاء صبروا حتى تخرج إليهم لكان ذلك خيرا لهم ، لكن الله غفور : يغفر مثل هذه الزلات التى لم تصدر عن سوء قصد ، ولم يكن سببها إلا تلك الطبيعة الجافة التى لم تهذب من قبل بعلم ولا دين . ورحيم : يرحم مثل هؤلاء ، ومن رحمته أن ينزل من الآيات الخالدة ، ما يؤدب عباده بالأدب الذى ترضاه النفوس الكريمة ، والطباع الشريفة . وهكذا يدخل القرآن فى شئون العباد ، فيعلمهم طريق النداء ، وطريق الاستئذان . وقد حكى عن ابن عبيد : ما دققت بابا على عالم حتى يخرج فى وقت خروجه . وكان ابن عباس يذهب الى أبَىّ فى بيته لأخذ القرآن عنه ، فيقف عند الباب ولا يدق الباب حتى يخرج .

هكذا فعل القرآن ، وصقل الناس بادبه الكريم ؛ وهكذا لا تسمو النفوس حتى تسترشد بالقرآن ، وتهتدى بهديه .

***

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) :

فسق فلان : خرج عن حجر الشرع ، مأخوذ من قولهم : فسق الرطب ، إذا خرج عن قشره . يقع الفسق بالقليل من الذنوب وبالكثير ، لكن تعورف فيما كان كثيرا ، وهو أعم من الكفر ، لكن أكثر ما يقال لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بأحكامه كلها أو بعضها . وقوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً (١) » يدل على أن الفسق أعم من الكفر ، لأنه قابل به الإيمان .

والبيان : الكشف عن الشيء . وبينته وأبنته ، إذا جعلت له بيانا يكشفه . والتبيّن : التعرف وطلب البيان . والندم : التحسر من خطأ الرأى فى أمر فائت . والتركيب يدل على الملازمة ، ومنه المنادمة والمداومة . فالندم : تحسر يلازم صاحبه . وعامة قراء المدينة : فتثبتوا . وهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى ، فبأيهما قرأ القارئ فهو مصيب .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة فى صدقات بنى المصطلق ، فلما سمعوا مقدمه أعدوا أنفسهم للقائه ، تعظيما لمن بعثه رسول الله ، فحدثه الشيطان أنهم قاتلوه ، فرجع وقال : إن بنى المصطلق منعوا صدقاتهم ؛ فأغضب ذلك النبي والمسلمين معه ، وهمّ بغزوهم ، فلما بلغهم رجوع ابن عقبة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفّوا له حين صلاة الظهر ، وقالوا : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ! بعثت إلينا مصدقا فسررنا وقرت أعيننا ، ثم رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك لغضب من الله ورسوله ؛ فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال وأذن لصلاة العصر ، ثم نزلت الآية .

وأيا ما كان سبب النزول ، فالآية تقرر أصلا عظيما له خطره فى الحياة . وكم فرق الكذب بين الأصدقاء ، وكم سفك من الدماء ، وكم شن من غارات ، وأثار إحناً وترات ، وكم فرق العشائر ، وذهب بالأنفس والأموال ! لذلك كان للصدق من المكانة ما جعل النبي عليه السلام يقول فيه : « إن الصدق يهدى الى البر ، وإن البر يهدى الى الجنة » ، وكان للكذب من الرداءة والحطة ما جعل النبي عليه السلام يقول فيه : « إن الكذب يهدى الى الفجور ، وإن الفجور يهدى الى النار » ، ألا لعنة الله على الكاذبين !

وخطر الأخبار لا يجىء من ناحية الفسق وتعمد الكذب وحده ، بل يجىء من نواح أخرى ، فقد يكون الرجل عدلا لكنه لا يعرف كيف يسمع الأخبار ولا كيف ينقلها ،

(١) السجدة : ١٨

فلا يحسن السمع ولا يحسن الأداء ؛ وقد يكون الرجل عدلا ذا غفلة فتدس اليه الأخبار من الكاذبين وينقلها على ظن الصدق .

والتثبتُ فى الأخبار فضيلة ليست كثيرة عند الناس ، وأكثر الناس يقعون فى تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون ، ولبعض مهرة الكاذبين حيل تخفى على أشد الناس تثبتا من الأخبار .

وكثيرا ما يقع عدم التثبت من العظماء الذين يملكون النفع والضرر ، يجيئهم ذلك من ناحية استبعاد أن يكذب بطانتهم عليهم ، وهو مدخل للخطر عظيم .

والذين هم فى أشد الحاجة الى العمل بهذه الآية ، هم الذين بيدهم مقاليد الأمور ، وبيدهم الضر والنفع ؛ أما الذين لا يملكون ضرا ولا نفعا فحاجتهم اليها أقل من حاجة هؤلاء . والآية على العموم أدب عظيم لا بد منه لتكميل النفس ، وإعدادها لتعرف الحق ، والبعد عن مواطن الباطل .

ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم عمل بقول ابن عقبة لغزا قوما مؤمنين يحبون الله ورسوله ، وسفك منهم دماء ، وأخذ منهم أموالا بغير حق .

فالله تعالى يرشد عباده الى هذا الأدب الكامل ، ويحذرهم أن يعملوا بالأخبار قبل الكشف عنها ، وقبل التثبت ، لئلا يصيبوا أقواما بسبب الجهل ، وبسبب الأخبار الكاذبة التى لا تفيد علما عند العقلاء ، فيصبحوا بعد ذلك آسفين نادمين ، يلازمهم الحزن على ما فرط منهم . فيجب الكشف عن الخبر بكل الوسائل المستطاعة ، ويجب على المؤمن أن يتعلم طرق الكشف عن الأخبار ، ويروض نفسه عليها . وقد قال الحسن : فوالله لئن كانت الآية نزلت فى هؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة الى يوم القيامة ما نسخها شىء .

والنبأ : هو الخبر العظيم . أما الأخبار التافهة التى لا يترتب شىء عليها ، فهى فى غير حاجة الى التبين والتثبت .

* * *

(واعلموا أنّ فيكم رسولَ الله لو يطيعكم فى كثيرٍ من الأمرِ لعنتّم ، ولكنّ الله حبب إليكم الإيمانَ وزينه فى قلوبكم ، وكرّه إليكم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ ، أولئك هم الراشدون . فضلاً من اللهِ ونعمةً ، والله عليمٌ حكيمٌ) :

العنت : الجهد والمشقة والهلاك . والزينة ثلاثة أنواع : نفسية كالعلم ، وبدنية كالقوة وطول القامة ، وخارجة عنهما كالجاه والمال .

كفر النعمة وكفرانها : سترها بترك أداء شكرها . والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية ، أو الشريعة ، أو النبوة ، أو ثلاثتها . وقد يقال : كفر ، لمن أخل بالشريعة وترك ما لزمه من شكر الله ، نحو « مَنْ كَفَرَ فعليه كُفْرُه » إذ هو مقابل لقوله : « وَمَنْ عَمِلَ صالحاً فَلأنفسِهِمْ يَمْهَدُونَ (١) » . والذى تنطوى عليه الطبيعة الانسانية هو كفران النعمة وعدم القيام بشكرها ، يدل عليه « إنّ الإنسانَ لكفورٌ مُبينٌ (٢) » لكنه قد يخرج بالتعليم والتهذيب وتقويم الدين الى حالة أخرى ، وذلك هو المقصود بقوله تعالى : « وكرّه إليكم الكفرَ والفُسوقَ والعصيان » . فهؤلاء صحابته صلى الله عليه وسلم : فاض عليهم نوره ، وغمرهم أدبه ، وهذبهم تعليمه ورياضته ، فحبب إليهم الإيمان ، وصار زينة عندهم ، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان .

والعصيان : خروج عن الطاعة . ويقال لمن فارق الجماعة : شق عصا الطاعة . وأصله أن يمتنع الرجل بعصاه .

والرشد : خلاف الغى ، يستعمل استعمال الهداية . وقيل الرشد فى الأمور الدنيوية والأخروية ، والرَّشد فى الأمور الأخروية لا غير . والراشد والرشيد يقال فيهما جميعا .

والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل . والحكمة بالنسبة لله : علم الأشياء ، وإيجادها على غاية الإحكام ، وبالنسبة للإنسان : معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات .

تذكر الروايات التى رويت فى قصة ابن عقبة وبنى المصطلق ، أن النبى عليه السلام ، حدثته نفسه بغزوهم ، وأنه غضب على بنى المصطلق بعد أن سمع خبر ابن عقبة ، وأنه لم يصدق وفدهم عند حضوره إلا بعد نزول الآية ، وأنه بعث خالدا وأمره باستطلاع حالهم ، وعدم العجلة فى حربهم ، وأن من المسلمين من حسّن غزوهم ، ومنهم من كان مع الرسول فى التريث والتثبت .

وقد دعا هذا بعضَ المفسرين الى توزيع الخطاب ، فجعل قوله : «لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم» لمن كان همه غزوهم ومطالبة الرسول به ، وقوله : «ولكنّ الله حبّب اليكم الإيمان» للفريق الذى لم يطالبه بالغزو وكان معه فى التريث وطلب التثبت ؛ ورأوا أنه لا يصح أن يكون المخاطبون واحدا فى الطرفين ، لأنه ذكر أولاً أن طاعتهم توجب العنت ، وذكر ثانياً أنه حبب اليهم الإيمان ، وكرّه الفسوق والعصيان ، والأمران متناقضان لا يجتمعان فى فريق واحد . غير أن توزيع الخطاب على هذا النحو لا يليق ببلاغة القرآن وإعجازه ، وليس هناك ضرورة تدعو اليه ؛ وسيعلم ذلك مما يأتى :

(١) الروم : ٤٤ (٢) الزخرف : ١٥

بعد أن حذر الله المؤمنين أخبار الفاسقين ، نبههم الى أن الرسول بينهم ، وليس المقصود ظاهر الخبر ، لأن ذلك معروف بالعيان ، بل المقصود لازمه وهو وجوب التحرز من الكذب وتوقيه ، لأن المؤمنين ورئيسهم الأعظم بينهم ، يجب أن يكونوا بعيدين عن الدنايا ، وعن الكذب الذى يؤدى الى المفاسد ، ويجر الى ويلات قد يشترك فيها النبى الأكرم ؛ ولا يليق بمن يحبه ويؤمن به ويعظمه ، أن يوقعه فى مثل هذا الخطر الذى يؤدى اليه الكذب ؛ وهذا الحب وهذا الإجلال يدعو الى الاحتراس من وقوع المحبوب فيما لا يليق أن يقع فيه . والإعلام بأن فيهم رسول الله ، تنبيه لهم على وجود المرشد الذى يجب اتباعه ، وتجب طاعته . وبذلك عاد الحديث الى الطاعة ، والى عدم السبق بالرأى ، والتعجل فى الحكم ، وهو موضوع أول آية فى السورة .

والسر فى ذلك الوجوب : هو أن الرسول مبلغ أمر الله ، ومبين له ، وأنه أدرى بالأغراض الإلهية ، وأدرى بمصالح الأمة وما ينفعها ، من كل من كان حوله ، يؤيده الوحى ، ويمده النور الإلهى ، ومقامه مقام المتبوع ، ومقامهم مقام التابع ؛ فيجب أن يطيعوه لا أن يطيعهم ؛ ولو أن الأمر انعكس وأطاعهم لنالهم من طاعته إياهم عنت وجهد ، ومشقة وهلاك ؛ ولكن ذلك لا يكون ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكم منصبه ، لا يتبع إلا ما يوحى اليه من ربه ، وهذا مبدأ معروف لم يجر حديث عنه فى الآية ، ولأن جماعة المؤمنين بحكم إيمانهم لا يرضون ذلك ولا يطالبون به ، لأن الله حبب اليهم الإيمان بالله ورسوله ، وذلك يستدعى طاعة الله ، وطاعة رسوله ؛ وحسّنه فى قلوبهم فهو لاصق بها ، وكره اليهم الكفر بالله ورسوله ، وكره اليهم الخروج عن الطاعة ، وركوبَ ما نهى الله عنه ؛ وقد جرت عادة القرآن أن يخاطب الجميع ولو كان الذى فعل الفعل البعض ، تنبيها على أن المسلمين يعدّون وحدة وإن كثرت الأعداد ، وأن ما يفعله البعض منهم يعد صادرا عن الجميع .

ومن المفسرين من حمل الفسوق على الكبائر ، والعصيانَ على الصغائر . وقد نقل عن ابن زيد : الفاسق فى كتاب الله كله : الكاذب . ولذلك حمل الفسوق على الكذب ، والعصيان على الإخلال بالأركان .

ثم وصف الله سبحانه من حبب اليهم الإيمان وكره اليهم الكفر ، على طريق الالتفات ، بأنهم الراشدون ، السالكون طريق الحق ، المهتدون اليه ؛ وبين أنه فعل ذلك فضلا منه ونعمة عليهم . وقد قيل : إن الفعل إذا نظر الى صدوره من جانب الحق سمى فضلا ، وإذا نظر الى وصوله الى العبد سمى نعمة .

والله عليم : بأحوال الخلق ، وبالمحسن منهم والمسىء ، ومن هو أهل لفضله ، ومن ليس أهلا للفضل . وحكيم : يضع الأشياء موضعها .



هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

وأصحابه الى المـدينة

بدء تألف الأنصار للدعوة الاسلامية :

كانت يثرب ، وهى التى اشتهرت باسم المدينـة ، يسكنها قبيلتان : بنو الأوس ، وبنو الخزرج ، وكان الأوس والخزرج أخوين ، وكان بين أولادهما وأحفادهما من التنافس مالا يكون مثله إلا بين الأعداء الألداء ، وكان يجاور هاتين القبيلتين بيثرب قبائل الجاليات يهودية هاجرت من مواطنها ببـلاد الدولة الرومانيـة هربا بدينها من اضطهاد المسيحيين ، فكان بنو الأوس وبنو الخزرج يتفقون مع بعض جماعاتهم لمحاربة بعضهم لبعض . واتفق أن حدثت بينهم حرب ، دعيت يوم بُعاث على عادة العرب من تسمية حروبهم بالأيام ، أتت على أكثر قادتهم . فرأى بنو الأوس أن يحالفوا قريشا على أولاد عمهم الخزرج ، فارسلوا وفداً منهم تحت قيادة إياس بن معاذ ، وأبى الحيسر أنس بن رافع ، يفاوضون قريشا فى عقد هذا الحلف .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسـلم خبر قدومهم جاءهم وقال لهم : هل لـكم فى خير مما جئتم له ؟ أن تؤمنوا بالله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، وقد أرسلنى الله الى البشر كافة ، وتلا عليهم آيات من القرآن الحـكيم .

فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئنا له ، فعارضه أبو الحيسر وقال له : لقد جئنا لغير هذا ، فسكت إياس .

فلما جاء موسم الحج تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجال من الخزرج عددهم ستة ، ودعاهم الى الاسلام ، فشرح الله له صدورهم ، وقبلوه دينا لهم ، وقالوا لرسول الله : إنا تركنا قومنا وبينهم من السخائم ما بينهم ، فان يروا رأينا فى الاسلام فلا يـكون رجل أعز لدينا منك ، ووعدوه باللقاء فى الموسم المقبل .

فلما أقبل الموسم قـدم الى مكة اثنا عشر رجلا للتفاوض مع النبي صلى الله عليه وسلم ، منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، واجتمعوا برسول الله عند العقبة ، واتفقوا معه على الاسلام ، وبايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان ولا يعصوه فى معروف . وقد سمى هذا الاتفاق ببيعة العقبة الأولى .

ولـما أزمعوا العود الى يثرب أصحبهم النبي صـلى الله عليه وسلم رجلين من خيرة رجاله : مصعب بن عمير العبدرى ، وعبد الله بن أم كلثوم ، ليذيعا الاسلام فى القبيلتين ، ويدعوا اليه ، ويعلما من يدخل فيه .

فنزل مصعب على أحد الذين بايعوا رسول الله وهو أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وأخذ يدعو الناس للاسلام . فلما نمى الخبر الى سعد بن معاذ رئيس الأوس ، قال لابن عمه أسيد بن حضير : يا ابن عم ألا تقوم الى هذين الرجلين اللذين يفتنان ضعفاءنا لتزجرهما ؟

فنهض أسيد بن حضير يريدهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، مضيف مصعب ، قال له : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدُق الله فيه .

فلما حاذاهما قال لهما : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا إن كان لـكما بنفسيكما حاجة .

فقال له داعية الاسـلام مصعب : ألا تجلس فتسمع فان رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره ؟ فجلس ، فقرأ عليه مصعب آيات من القرآن فيها هدى وبلاغ ، فوقعت من قلبه أرفع موقع ، فلم يقم من مجلسه إلا مسلما .

لما عاد أسيد بن حضير الى رئيسه سعد بن معاذ سأله عما فعل ، فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأسا .

فاستشاط سعد غضبا وقام لهما بنفسه ، فقابله مصعب بما قابل به رسوله ، فلم يتمالك نفسه بعد سماعه ما سمع إلا أن أسلم ، وكان إسلامه خيرا وبركة ، فانه لما عاد لقى رجالا من بنى عبدالأشهل وهم من الأوس وقال لهم : ما تـعُدُّونني فيكم ؟ فأجابوه أنت سيدنا وابن سيدنا ، فقال : كلام رجالـكم ونسائـكم علىّ حرام حتى تسلموا .

فلم يبق بيت من بيوت بنى عبد الأشهل إلا أجابه ، وسُرعان ما عم الاسلام يثرب كلها ولم يبق لأهلها حديث غيره .

بيعة العقبة الثانية :

لـما أقبل العام التالى لعام البيعة الأولى ، قدم مـكة كثيرون من أهـل يثرب ، فلقى النبي صلى الله عليه وسلم مسلميهم ، فواعدوه الاجتماع ليلا عند العقبة ، فامرهم أن يتلطفوا فى المجىء ، وأن لا يشعروا بهم أحدا ، لـكى لا يتنبه لهم القرشيون ، ويعملوا على منع اجتماعهم . فلما

مضى ثلث الليل الأول خرجوا من مضاربهم يتسللون تسلل القطا الى مكان الاجتماع ، وما زالوا يحتشدون حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلا ، منهم اثنان وستون من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومعهم امرأتان ، ووافاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه وإنما جاء معه ليشد أزره . ولما أنصتوا ليسمعوا ما يلقى إليهم ، قال لهم العباس : إن ابن أخى محمدا فى منعة من عشيرته لم يمكنوا منه أحدا ، وقد تحملوا فى ذلك أعظم العنت ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه به من الحماية ، ومانعوه ممن يتقصده بسوء ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإلا فدعوه بين عشيرته يحمونه بما يصل اليه جهدهم .

فقال كبير القوم البراء بن معرور : والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق ، وبذل أنفسنا دونه .

عند ذاك قال القوم للنبي صلى الله عليه وسلم : خذ لربك ولنفسك ما أحببت .

فقال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم .

فقال له الهيثم بن التَّيِّهان : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال عهودا ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : بل الدم الدم ، والهدر الهدر . أى إن طالبتم بدم طالبت به معكم ، وإن أهدرتموه أهدرته .

ثم بدأت المبايعة على ما طلب . ولما تمت اختار منهم اثنى عشر رجلا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، لكل عشيرة منهم واحد ، والتفت اليهم قائلا : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى .

فبلغ قريشا أمر هذا الاجتماع فهالهم ، ولقوا أهل يثرب وقالوا لهم : يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا ، وتبايعونه على حربنا . فأنكر مشركوهم ذلك ، لأنهم لم يشعروا به ، وحلفوا لهم أنه لم يحصل منهم شىء فى ليلتهم ، وقال لهم رئيسهم عبد الله بن أُبَىّ : ما كان قومى ليفتاتوا على بشىء من مثل هذا .

يثرب معقل الاسلام :

لما عاد وفد الأوس والخزرج الى مدينتهم شاع فيها الاسلام ، وتحققت قريش من ذلك أن ما كان بلغها من ممالأة أهلها للنبي صلى الله عليه وسلم صحيح ، وأدركت ما يبتنى على إغضائها عنه من الأحداث والكوارث ، فشددت الرقابة على رسول الله ، وزادت فى التضييق على أصحابه لتحملهم على الانفضاض من حوله . فأمرهم صلى الله عليه وسلم بالفرار بدينهم الى المدينة ، فأخذوا

يتسللون اليها خفية ، حتى لم يبق فى مـكة غير أبى بكر وعلى وصهيب الرومى وزيد بن حارثة وقليل من المستضعفين الذين لا يستطيعون الانتقال . وأراد أبو بكر الهجرة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : على رِسْلك فانى أرجو أن يؤذن لى ، فقال الصديق : وهل ترجو ذلك ؟ قال نعم ، فمـكث أبو بكر مع رسول الله ليهاجر معه ، وأخذ فى إعداد راحلتين كانتا له وتغذيتهما ورق السَمُر لتقويا على تحمل مشاق السفر .

مبادرة قريش الى اتخاذ قرارات خطيرة :

لم تـكتف قريش بما اتخذته من رقابة ، وما بالغت فيه من اضطهاد ، ورأت أن أمر رسول الله قد استفحل بما أصبح له من علاقات خارجية تفضى لا محالة الى نشوب حروب طاحنة ، ونشوء كوارث ماحقة ، لذلك دعت رجالاتها الى الاجتماع للمشاورة فى دار ندوتهم ، على عاداتهم فى الشئون الهامة ؛ وكانت هذه الندوة دار قصى بن كلاب .

فلما التأم جمعهم أخذوا يتآمرون ، فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كى نستريح منه .

فرد عليه بعضهم بقوله : إذا خـرج فيوشك أن تجتمع عليه الجموع فلا نأمن غائلته ، ونجد منه ومن مناصريه عنتا .

وأدلى واحد آخر برأيه فقال : نحبسه حتى يأتيه الموت .

فعارضه بعض المؤتمرين بقوله : إذا فعلنا ذلك فلا نأمن أن يجىء أنصاره بيثرب لتخليصه ، فتقع الحرب بيننا وبينهم .

هنا انبرى شيخ منهم وقال : الرأى عندى أن تشترك جميع بطون قريش وأفخاذها وعشائرها فى قتله ، بأن ننتدب من كل منها شابا فيجتمع عليه هؤلاء الشبان فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل فلا تقوى عشيرته على حرب قريش كلها ، ويرضون بأخذ ديته . فقبل جميع المؤتمرين هذا الرأى ، وأصروا على تنفيذه .

فأوحى الله الى رسوله بما بيته له قومه ، وأمره أن يهاجر الى يثرب ليلحق بأنصاره هنالك ، ويستقبل من أمر الدعوة عهدا جديدا .

نظرة علمية فى هذه الحوادث :

قبل أن نأتى على تفصيلات الهجرة النبوية ، وما احتوشتها من محاولات القرشيين فى منعها وتعقبها ، رأينا أن نقف فى هذا الموطن هنيهة للنظر فى التعليلات التى أبديت لتفسير الاسلام الفجائى لقبيلتين لا تمتان بسبب الى أية دعوة دينية ، ولا يعنيها من أمر النهوض الاجتماعى للأمة العربية ما لا يعنى غيرها . فاننا نرى أن تلك التعليلات ، حتى الاسلامية منها ، لاتقنع الخبيرين بعوامل التطورات النفسية والاجتماعيـة ، ولا تبين من حقيقة هـذا الأمر الجلل ما يجب أن يُعرف ، وخاصة فى هذا العصر الذى لا ينخدع أهله بالخلابات الـكلامية .

إنى أرى فى هذا الأمر حادثا اجتماعيا لم يسجل تاريخ التطورات النفسية والاجتماعية له مشبها، فان كان كل ما لا يمكن تعليله بعلة طبيعية يعتبر آية ، فهو آية يزيدها مر الأيام جلالا وعظما . ولكن المدار على وضع هذه المسألة وضعا علميا تصلح معه لأن تحلل الى عناصرها الأولية .

وفى نظرى أن بيان هذه الناحية من قوة السريان فى الديانة الاسلامية ، وفى سرعة تلقف النفوس لها ، والتأثر بها الى أقصى حدود التضحية ، يكشف من أسرار هذا الروح الإلهى ، وهو الاسلام ، ومن صحة رسالة الداعى اليه ، وهو محمد ، ما لا تكشفه أية ناحية أخرى .

علل كتاب السيرة المسلمون هذا الأمر الجلل بأن اليهود الذين كانوا مجاورين لأهل يثرب كانوا يتحدونهم بقولهم لهم: إن نبيا يرسل آخر الزمان من بلاد العرب ، فاذا ما ظهر اتبعناه واتفقنا معه عليكم وقهرناكم . فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ودعا للاسلام ، تذكر أهل يثرب ما كان يهددهم به أعداؤهم ، وقال بعضهم : لبعض هلم بنا اليه ، لا يسبقنا الاسرائيليون الى اتباعه . ثم ما كان منهم إلا أن تسارعوا الى تلبية ندائه ، واضطلعوا من مهام نصرته بما لا يقدم عليه إلا المتفانون فى ولائه .

هذا التعليل الذى تناقله جميع كتاب السيرة ، ويفرح به الذين لا يرون فى حوادث الدعوة الاسلامية إلا أمورا عادية يمكن تعليلها بعلل طبيعية ، لا يسلم من النقد ، بل لا يقوى على احتماله ، لأن أهل يثرب لم يدخلوا فى الاسلام ، ولم ينتدبوا للاضطلاع بالدفاع عنه ، إلا بعد أن مضى على إعلان النبى صلى الله عليه وسلم له نحو ثلاث عشرة سنة ، فأين كانوا من الاسلام طوال هذه المدة ، وكيف لم يخشوا أن يسبقهم اليه اليهود الذين توعدوهم به ، ولِمَ أحجم هؤلاء اليهود عن المسارعة الى قبول دعوته ، وقد بلغتهم بمكة وبالمدينة أيضا قبل إسلام الأوس والخزرج بسنين كثيرة ؟

ألا يدل هذا الانصراف الطويل من الجانبين على أنهم كانوا لا يفكرون فى الاستنصار بالنبى الجديد على مناهضيهم ؟

وإذا صح أن اليهود كانوا يعتقدون بوشك ظهور نبى فى بلاد العرب ، وأنهم يعولون على الانضمام اليه ، والاستنجاد به ، أ كانوا يصرحون بذلك لأعدائهم غير خاشين أن يسبقوهم الى الدخول فى دينه ، ولم يعهد فى تاريخ بنى إسرائيل أنهم كانوا من إفشاء أسرارهم بحيث يطلعون أعداءهم على صميم سرائرهم ؟

وإذا كان هذا مما لا يمكن قبوله ، فهل يمكن قبول أن الأوس والخزرج كانوا من السذاجة بحيث يصدقون كلام اليهود ، ويبادرون الى الدخول فى دين جديد ، وخاصة إذا كان الداعى اليه مضطَهدا ، وأصحابه مستضعفين لا يغنون عن أنفسهم شيئا ؟

كان ميلهم الى الدخول فى طاعته ، إذا كان لديه رجال ومال يرجون أن يتقووا بهم على

أعدائهم ، مما يمكن أن يعقل ، أما والنبي نفسه كان يطلب اليهم الحماية والنصرة على أعدائه ، وليس لديه مال ولا عتاد يمكن الاعتماد عليهما ، فما يستحيل تعقله ، وخاصة لأن الاتفاق معه يوقعهم فى حرب مع قريش ، فكيف يصدر من قوم عقلاء أن يستكثروا من الأعداء فى الوقت الذى كانوا هم فيه يريدون الاستكثار من الأنصار بطلبهم محالفة قريش ؟

أجمع كتاب السيرة على أن الأوس كانوا أوفدوا رجالا منهم لطلب معونة قريش ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قابلهم ودعاهم للاسلام فقبلوه ، فكيف يتفق هذا وما قالوه من أن الأوس والخزرج بادروا الى الاسلام للاستنصار بالنبى صلى الله عليه وسلم على أعدائهم ؟

لم يبق إلا أن يقال إن هؤلاء اليثربيين أسلموا لأنهم تحققوا أن الله ناصر رسوله لا محالة ، وأنهم بالدخول فى طاعته يضمنون التغلب على خصومهم ، وهذا مما لا يسيغه العقل ، ولا يمكن أن يقبله العلم ، وتدل ماجريات الحوادث على خلافه .

فأنَّى لقبيلتين جاهليتين أن تعتقدا برسالة لم يقم دليل على صحتها ، بل لا تزال مضطهدة ، مغلوبا على أمرها ، ولم يظهر بعدُ ما يدل على أن العاقبة ستكون لها ، وليستا أهل كتاب ، ولا تعرفان من أمر النبوات إلا ما يترامى إليهما من أحاديث عامة اليهود فى بلادهما ؟ وأنَّى لآحادها أن يحصلوا إيمانا راسخا يسمح لهم أن يبيعوا أنفسهم ، ويبذلوا أموالهم ، فى سبيل نصرة ديانة لم يتم تكونها بعد ؟

بعض هذا لم يعهد فى طبيعة البشر ، فما ظنك به كله طفرة وعلى غير انتظار ؟

لننظر فى تعليلات غير المسلمين :

يقولون : إن الحرب التى كانت قائمة بين الأوس والخزرج كانت قد طال عهدها وأصبحت علة مزمنة دفعتهما لطلب المخرج منها بأى ثمن ، فلما انتشرت الدعوة الاسلامية رأتا أن خير وسيلة لوضع حد لذلك التناحر ، أن يدخلا فى الدين الجديد ، ويعودا الى سالف صفائهما بسببه ، فأقدما على ما أقدما عليه .

نقول : فهل كان غاب عن الأوس والخزرج أنهما بالحصول على السلام بينهما بهذا الثمن يستجلبان عداوة قريش وحلفائها ، ومن يهمه ملاشاة الدعوة الاسلامية من سائر العرب ، فتقعا فى شر مما هربت منه ، وتصبحا هدفا لسخط العرب واليهود معا ؟

أما توهم أن قريشا كانت تغضى عن محمد وعنهما فمستحيل ، لأن العرب كانوا يتقاتلون لأضعف الأسباب كسبق حصان ، أو قتل ناقة ، أو قصيدة هجاء ، فهل كانت تغضى قريش ، وهى القيمة على دين العرب ، عن إيواء قبيلتين رجلا منها يسب آلهتها ، ويحقر ديانتها ، ويسفه أحلامها ، ويتوعدها بالشر ، ويستهوى الناس لاتباعه ، حتى إذا ما قوى شأنه ، أغار عليها فأزال سلطانها ، وحطم أصنامها ، وأباد خضراءها ؟

اللهم لا ، وكان الأوس والخزرج يعلمون ذلك ولا يتجاهلونه ، فهل كان بلغ بهم اختلال العقل الى جلب عدد لا يحصى من الشرور على أنفسهم فى سبيل التخلص من شر واحد يمكن أن يُتقى بوسائل كثيرة ؟

الخيال فى هذه المواطن خصب ، فيمكن أن تُنتحل لدخول الأوس والخزرج فى الاسلام فجأة أسباب معاشية ونفسية واجتماعية ، فيقال مثلا : إنهم أرادوا بالانضمام الى دعوة دينية أن تمهد لهم سبل الغارات والفتوح ، فيغنموا ويثروا تحت ستار إقامة الحق فى الأرض .

أو أن يكونوا قد تهذبت نفوسهم ، وتطورت عقولهم ، فكرهوا أن يقيموا على وثنية منحطة كالتى كان يدين بها العرب ، فلما ظهر دين التوحيد الخالص تسارعوا الى اتباعه .

أو أن يكونوا قد ترقى شعورهم القومى فكرهوا أن يبقى العرب على الحالة القبيلية إزاء أمم العالم ، وتاقوا لأن ينتقل مواطنوهم درجة أو درجات فى سلم الاجتماع ، ورأوا أن هذا لا يكون إلا تحت ستار دعـوة دينية ، أو نعرة جنسية ، فلما بُعث النبى صلى الله عليه وسلم ودعا الى التآلف والتحاب اتبعوه لتحقيق غرضهم الشريف .

كل هـذه خيالات لأن الأوس والخزرج لم يكونوا فى حالة يرجـون معها أن يوسعوا على أنفسهم دائرة التناحر ، أو ينهضوا للفتوح دون أن يعتمدوا على ركن ركين من مال وجاه .

ولم يعرف عنهم تهذب نفسى ، وتطور عقلى ، يدفعانهم الى تطلب غذاء روحى أرقى مما لغيرهم من سائر العرب . فاذا كانت قريش على كثرة صِلاتها بالقبائل ، وانتقالاتها الى الخارج ، لم تبلغ مثل هذه الدرجة ، فيصعب أن يتصور العقل أن تبلغها قبيلتان متناحرتان ، لم تدع لهما حالة الحرب فرصة صالحة للتفكير فى الشئون الدينية والاجتماعية . وهذه الأمم المتمدنة أمامنا متى وقعت فى حرب تجردت للنضال ، وتركت هذه الشئون جانبا ، حتى يجىء عهد السلام ، وتتفرغ للتأمل والتفكير هادئة مطمئنة .

بقيت شبهة يمكن أن يتذرع بها متلمس التعليلات الطبيعية ، وهى أن قبيلتى الأوس والخزرج بَرِمتا باليهود الى حـد تلمس المخلص منهم من أى وجه كان ، فترامتا على الاسلام رجاء أن تصادف فيه مخرجا .

هذه الشبهة لا تقوى على النقد ، لأننا رأينا أن الأوس والخزرج كان بعضهم يتفق مع بعض قبائل اليهود على بعض ، فـكان البأس الشديد بينهم وبين أنفسهم ، لا بينهم وبين اليهود .

على أننا نقول : من أية النواحى كانوا يرجون المخلص بالدخول فى الاسلام وهو يحملهم أعباء حربية جديدة ، ويدفعهم الى التورط فى منازعات لا تعتبر منازعات اليهود بجانبها شيئا ، منها عداء قريش ، وعداء جميع قبائل العرب ، ويزيد عليهم اليهود أيضا ؟

فهذه الافتراضات كلها كما ترى خيالية ، ولا يمكن أن يقام لها وزن فى تعليل مثل هذه الانتقالات الفجائية ؟

فلم يبق أمامنا إلا تعليل واحد ، وهو أن قيم الوجود تعلقت إرادته أن يحدث فى العالم الانسانى انتقالا جديدا ، بارسال خاتم للمرسلين اصطفاه من بلاد العرب ، أبعد بيئات العالم عن توليد الانقلابات الاجتماعية ، ليكون أمره كله إعجازا فى إعجاز ، فبث فى رُوع قبيلتين منها هداية إجماعية ، وهو أمر بعيد الحصول فى عالم التطورات العقلية ، فقبلتا أن تضطلعا بعبء حماية الدعوة الاسلامية ضد الأبيض والأسود ، أى ضد العالم كله ، وهى مهمة تعتذر عن قبولها أمة عظيمة ، فماظنك بقبيلتين صغيرتين لا يتجاوز عدد أهلها خمسة آلاف نسمة ، ولا تستطيعان أن تلقى فى ساحة الوغى أكثر من ألف رجل على أكبر تقدير ، وليس لهما من المال ما تنفقانه على مثل هذا العسكر سنة واحدة .

ما هذا الإقدام المحير للعقل من جماعة من الناس لو توجهت إليها حفيظة أمة برمتها لخروجها عليها ، لارتعدت فرائص أشجع أبطالها ؟ بل ما هذه التضحية التى لا يقبلها إلا من وصل الايمان الى أعماق قلبه ، حتى فنيت فيه شخصيته ، وأين هو من الأوس والخزرج ولم يجتمعا بالنبى صلى الله عليه وسلم إلا لحظات مختلسة فى الليالى المظلمة ؟

لو كان لمحمد مال ، أو مدد من الرجال ، أو اتصال بأمة عظيمة تنصره إذا اقتضت الحال ، لقلنا إن الأوس والخزرج إنما مالوا الى حيث يرجون العز والسؤدد ، ولـكنهم حيال رسول عـدم الناصر من قومه ، وليس يتوقع له فوز يطمع فى خـيره ، فما الذى جمعهم على التطوع لنصرته ، والتضحية بنفوسهم فى سبيل دعوته ؟

اللهم إنى عجزت عن تعليل هـذا الأمر الجلل بالعلل الطبيعية ، ولا أراه إلا آية إلهية ، وكم فى الأرض والسموات من آيات يتخيلها الجاهلون أمورا عادية ؟

محمد فريد وجدى

التنزيه الخالص

قال الله تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الابصار ، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم » .

وقال على رضى الله عنه : « كل ما يتصور فى الأوهام فالله بخلافه » .

وقال الشافعى رضى الله عنـه : « من انتهض لطلب مدبره فان اطمأن الى موجود ينتهى إليه فـكره فهو مشبه ؛ وإن اطمأن الى نفى محض ، فهو معطل ؛ وإن اطمأن الى موجـود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحد » .

السُّنَّة

حكم الوصية بالمال وغيره

عن سعد بن أبي وَقّاص رضي الله عنه ، قال : « جاء النبيّ صلى الله عليه وسلم يَعودُني وأنا بمكة ـ وهو يَكرهُ أن يموتَ بالأرض التي هاجر منها ـ قال : يرحمُ اللهُ ابنَ عَفْراء ، قلت : يا رسول الله : أُوصِي بمالي كله ؟ قال : لا ، قلت : فالشطر ؟ قال : لا ، قلت : الثلث ؟ قال : فالثلث والثلث كثير ، إنك إنْ تدعَ ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدَعَهم عالةً يتكففُون الناس في أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة ترفعها الى في امرأتك ؛ وعسى الله أن يرفعَك فينتفعَ بك ناسٌ ويُضَرّ بك آخرون . ولم يكن له يومئذ إلا ابنة » . رواه البخاري في الوصايا .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الوصية وحكمها . (٢) بيان معنى الحديث إجمالا . (٣) بيان ما تضمنه الحديث من الحث على الاقتصاد في المال حتى في عمل الخير مراعاة لحقوق الورثة .

(١) تطلق الوصية في اللغة على معان ، يقال : أوصيت الى فلان بمال : جعلته له وخصصته به . ويقال : أوصيته بولده : استعطفته عليه . ويقال : أوصيته بالصلاة : أمرته بها . وتطلق لغة أيضا على وصل الشيء بالشيء ، فيقال : وصيت الحبل بالحبل إذا وصلته به . ومناسبة هذا المعنى للمعنى الشرعي الآتي بيانه ، أن الموصِي لما أوصى بالمال بعد موته كأنه وصل ما بعد الموت بما قبله في نفوذ تصرفه . وتجمع الوصية على وصايا ، على زنة هدية وهدايا .

وأما معناها في اصطلاح الفقهاء : فقد عرفها الحنفية بأنها « تمليك مضاف الى ما بعد الموت بطريق التبرع » . فقولهم : « تمليك » يشمل العقود التي تنقل الملكية ، كالبيع والهبة وغيرها . وقولهم : « مضاف لما بعد الموت » معناه أن الملك في الوصية لا يتقرر إلا بعد الموت ، بحيث لا يكون العقد نافذا إلا بعد الموت . وهذا القيد يخرج جميع العقود ما عدا الوصية . أما قولهم : « بطريق التبرع » فانه لزيادة الإيضاح . وبعضهم أخرج به الإقرار بالدين

لأجنبى ، فلو أقر فى حياته بدين لآخر ثم مات ، كان ذلك الإقرار تمليكا للدين بعد الموت . ولكن الواقع أن الإقرار ليس هو تمليكا للدين ، وإنما هو إظهار لما فى الذمة من حق مملوك للدائن من أول الأمر ، فهو خارج بلفظ التمليك . ولا فرق فى الموصى به بين أن يكون عينا أو منفعة . فاذا أوصى ببستان أو نقود أو غيرهما فانه يصح ، كما إذا أوصى بمنفعة ذلك البستان من ثمر وغيره . ولا يشترط أن يصرح بلفظ الوصية ، كما لا يشترط أن يضيفها الى الموت لفظا ؛ إنما الشرط أن يذكر لفظ الوصية أو ما يدل عليها . فاذا قال : لفلان ألف قرش مثلا من ثلث مالى ، فان ذلك يكون وصية ؛ أما إذا قال : من نصف مالى أو ربعه ، فان ذلك لا يصح ، لأن الوصية لا تكون إلا من ثلث المال ، فلا دلالة فى مثل هذه العبارة على الوصية .

وهذا التعريف قد وافق عليه بعض محققى المالكية بنصه ، ولكن المشهور فى نص تعريف الوصية عندهم هو أنها « عقد يوجب حقا فى ثلث مال العاقد يلزم بموته ، أو يوجب نيابة عنه » . ومعنى الجزء الأول من هذا التعريف متفق عليه بينهما ، لأنه عبارة عن تمليك مترتب على عقد التبرع بمال بعد الموت ، ولا يكون ذلك العقد لازما إلا بعد الموت . ومعنى الجزء الثانى وهو قولهم : « أو يوجب نيابة عنه » أن عقد الوصية كما يوجب حقا فى ثلث المال بعد الموت كذلك يوجب نيابة عنه فى التصرف فى بعض الأمور بعد الموت ، كأن يوصى بأن يقوم شخص على أولاده الصغار بعد الموت ، أو يزوج بناته ، أو يفرق ثلث ماله ، أو يقوم بتجهيزه ودفنه بصفة خاصة ، أو نحو ذلك . والوصية بهذا المعنى تكون إيصاء بمعنى إقامة الوصى . فالوصية عندهم عقد يوجب حقا فى مال المتوفى ، أو يوجب النيابة عنه فى بعض الشئون . والمالكية يشترطون فى صيغة الوصية أن تكون مشتملة على ما يدل على الوصية من لفظ صريح : كأوصيت ، أو غير صريح ولكن تفهم منه الوصية بالقرينة : كأعطوا لفلان كذا بعد موتى .

أما الشافعية فقد عرّفوا الوصية بأنها « عقد تبرع بحق مضاف الى ما بعد الموت » سواء أضاف ذلك التبرع الى الموت لفظا أولا . ويشترط عندهم أن تكون بلفظ يدل على الوصية صريحا أو كناية ، فمثال الصريح : أوصيت بكذا لفلان ، أو أعطوه كذا ، أو هذا المال لفلان بعد موتى ، أو هو له هبة بعد موتى ؛ فكل ذلك ونحوه وصية صريحة . وأما الكناية فكأن يقول : لفلان كذا من مالى ، ولم يذكر بعد الموت .

ومما لا خفاء فيه أن الوصية تطلق فى اللغة على الإيصاء بمعنى إقامة الوصى ، كما تطلق على ما يوصى به من مال أو غيره . وهذا المعنى لم يختلف مع المعنى الشرعى فى الواقع ، لأن الشارع يعتبر إقامة الوصى وصية ، كما يعتبر العقد الذى يدل على تمليك الموصى به شيئا من مال أو غيره وصية . فاذا لوحظ هذا المعنى كان متفقا عليه عند الجميع . والحنفية يقولون :

إن لفظ التمليك الذى ذكر فى التعريف يتناول تمليك المال وغيره ، ولا فرق فى هذا بين تمليك وصى أو غيره .

أما حكم الوصية : فقد اتفقت الأئمة الأربعة على أن الوصية ليست بواجبة ، ولكن قد تكون واجبة لأمر خارج عنها ، وذلك كما إذا كان عليه دين أو عنده وديعة يخشى أن تضيع على صاحبها فانه يجب عليه أن يوصى بردها الى صاحبها ، كما يجب عليه أن يوصى بسداد دينه ولو كان مؤجلا . فالوصية إنما تجب إذا أريد منها أداء حقوق الغير الواجبة . وإنما تجب فى هذه الحالة إذا عجز عن تنجيز ما عليه ، ولم يكن لصاحب الحق مستند يمكنه أن يثبت به حقه . وقد تكون الوصية مندوبة ، وذلك فيما إذا رجا منها كثرة الأجر . وتكون مكروهة إذا لم يرج منها كثرة الأجر ، وذلك كأن يكون انتفاع الورثة بها أكثر . وتكون مباحة إذا استوى عنده الأمران . وتكون محرمة إذا ترتب عليها إضرار بالورثة ؛ فقد روى عن ابن عباس أن الإضرار فى الوصية من الكبائر . على أن بعض المجتهدين يقول إن الوصية واجبة على أى حال ، بحيث إذا كان لدى الشخص مال فانه يجب عليه أن يوصى . ومن هؤلاء داود وإسحاق . واختار هذا القول أبوعوانة الاسفرايني وابن جرير وغيرهم . ولكن جمهور المجتهدين يرى أنها ليست بواجبة ، حتى قال بعضهم : إن الإجماع قد انعقد على أنها ليست بواجبة سوى من شذ . وبذلك تعلم أن الرأى المعول عليه هو ما قررناه لك من أنها تارة تكون واجبة ، وتارة تكون محرمة ، وتارة تكون مندوبة .

ولنذكر هاهنا أمثلة مما تصح الوصية فيه ، ومما لا تصح عند الأئمة الأربعة : فتصح الوصية بالحج باتفاقهم جميعا ؛ فاذا أوصى شخص بأن يحج عنه بعد موته ، فان وصيته تصح ، ويجب تنفيذها من ثلث ماله . وبعض أئمة الحنفية يرى أن من لم يحج حجة الفريضة فانه يجب عليه أن يوصى بها .

ولا تصح الوصية بقراءة القرآن على القبور أو فى المنازل ، وتقع باطلة عند الحنفية . هذا إذا لم يعين شخصا يقرأ على قبره أو فى منزله ، كأن يقول : أوصيت لمحمد أو لعلى أن يقرأ على القبر الذى أدفن فيه ، ونحو ذلك ؛ فاذا عين شخصا يقرأ فان فى ذلك خلافا ، فبعض الحنفية يقول : لا تصح الوصية أيضا مع هذا التعيين ؛ وبعضهم يقول : إنها تصح بشرط أن يأخذ المال الموصى به بطريق البر والصلة ، لا بطريق الأجرة على القراءة .

ومثل الوصية بالقراءة ، الوصية بالتهاليل (العتاقة) المعروفة عند الناس ، فان الوصية بها باطلة إذا لم يعين شخصا ؛ فاذا عين شخصا ، جرى فيها الخلاف المتقدم . وقد خالفهم فى ذلك المالكية والشافعية ، فقالوا : إن الوصية لمن يقرأ على القبر أو فى المنزل تصح ، ويجب تنفيذها ، كالوصية بالحج ، لا فرق فى ذلك بين أن يعين الشخص الموصى له أو لم يعينه .

ولا تصح الوصية بالبناء على القبور ، فاذا أوصى بأن يشيد على قبره بناء تقع الوصية باطلة بلا خلاف . نعم تصح برم القبر الذى يوضع فيه الجسم إذا تهدم بشرط أن لا يبنى عليه بناء مرتفع كالمنازل مما يفعله الناس فى زماننا . نعم تصح الوصية ببناء ما يميز القبر ؛ وحده بعض الأئمة بمقدار شبر ، وبعضهم بمقدار ذراع ، ونحو ذلك .

ولا تصح الوصية بأن ينقل من الموضع الذى مات فيه الى موضع آخر ؛ وإذا نقله الوصى وأنفق عليه يكون ملزما بما أنفقه من ماله لا من التركة ، إلا إذا أجازه الورثة . وإذا أوصى بأن يدفن فى داره بطلت وصيته ، إلا أن تجعل داره مقبرة للمسلمين .

وإذا أوصى بمبلغ كبير يشترى به كفنه فانه لا يعمل به ، ويكفن بكفن المثل .

وإذا أوصى بمصاحف توضع فى المسجد ، فان وصيته تكون باطلة عند أبى حنيفة .

وبالجملة : فالوصية لا تصح إلا إذا كانت متعلقة بأمر من الأمور التى يجيزها الشارع .

(٢) هذا معنى الوصية وحكمها . أما شرح ألفاظ الحديث فظاهرة ، لأن سعد بن أبى وقاص سافر من المدينة الى مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، فمرض سعد بمكة مرضا شديدا حتى ظن أنه سيموت بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ، ويود أن يموت بالمدينة التى هاجر اليها ، فعاده النبى صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : يرحم الله ابن عفراء ! يريد به سعد بن خولة ، وعفراء اسم أمه على التحقيق ، وخولة اسم أبيه ؛ وإنما قال ذلك صلى الله عليه وسلم ، لأن سعد بن خولة توفى بمكة بعد أن هاجر الى المدينة ، فكان عليه الصلاة والسلام يرثى له ، وقد ذكره لمناسبة كراهية سعد بن أبى وقاص الدفنَ بمكة .

وقوله : « إنك إن تدع » بكسر إنْ على الشرطية ، وجواب الشرط قوله « خير من أن تدعهم » ، ولا يضر حذف الفاء من الجواب ، لأن ذلك قد ورد عن العرب ، بل ورد فى كلام رسول الله حيث قال : « البينة وإلا حدٌّ فى ظهرك » . وقوله : « عالة » جمع عال ، ومعناه الفقير ، تقول : عال فلان يعيل ، إذ افتقر . وقوله : « يتكففون الناس فى أيديهم » : يسألون الناس بأكفهم ؛ يقال : تكفف الناس : إذا بسط كفه للسؤال ، أو سأل وضع الصدقة فى كفه ، أوسأل كفا من طعام . وقوله : « فى أيديهم » معناه بأيديهم . وقوله : « وعسى الله أن يرفعك » معناه : يطيل عمرك . وبذلك تعلم أن قوله فى الحديث : « وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها » المراد به سعد بن أبى وقاص راوى الحديث ، وكان الظاهر أن يقول : وأنا أكره أن أموت بالأرض التى هاجرت منها ، ولكنه عبر بهذه العبارة بطريق الالتفات . والدليل على ذلك ما صرح به فى حديث آخر رواه البخارى ، وإن كان يحتمل هنا أن الضمير عائد الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فانه يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها كما يكره سعد . وقد تحقق إخبار الرسول

صلوات الله عليه بذلك ، فان سعدا قد عاش بعد ذلك طويلا ، حتى إنه قاد الجيش الذى فتح مدائن كسرى فى عهد سيدنا عمر ، ورزق أولادا كثيرين نحو عشرة من ذكور وإناث .

(٣) أما بيان ماتضمنه الحديث من مراعاة حقوق الوارث فأمره ظاهر ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان دائما يحث الناس على أداء حقوق من يعولون . وقد ورد حديث صريح فى ذلك ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول » . وهذا الحديث الذى معنا صريح فى ذلك ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال : « مهما أنفقت من نفقة فانها صدقة حتى اللقمة ترفعها الى فى امرأتك » . فهذا صريح فى مراعاة حال الورثة الذين يتركهم بعده . وإذا كان الشارع قد أمر بمراعاة حال الورثة فى أعمال الخير والبر، فمن باب أولى مراعاة حالهم فى الإنفاق ، فليس من الحسن أن تستهوى الشهوات المرء فتسوقه الى تبذير المال وإنفاقه ذات اليمين وذات الشمال حتى ينفد ويترك ورثته فى ضنك وبؤس وشقاء ؛ ومن يفعل ذلك كان آثما لا محالة ؛ ولا بد أن يسأل عن ذلك يوم لا تنفعه الشهوات التى قد انقضت كأنها لم تكن، ويدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يجوز ابن آدم الصراط حتى يسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه » ؛ وقوله تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . فالخير كل الخير أن يعمل الانسان بقوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » ؟

عبد الرحمن الجزيرى

قيمة العلم عند المسلمين

قال الله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ؛ ولغدوة فى طلب العلم أحب الى الله من مائة غدوة ؛ ولا يخرج أحد فى طلب العلم إلا وملك موكل به يبشره بالجنة ؛ ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة » .

وقال على رضى الله عنه : « أقل الناس قيمة أقلهم علما » .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : « ما عصى الله أحد بمعصية أشد من الجهل » .

فقيل يا أبا محمد : هل تعرف شيئا أشد من الجهل؟ قال : نعم الجهل بالجهل مطية من ركبها زل ، ومن صحبها ذل .

وقال على رضى الله عنه : « الحكمة ضالة المؤمن فالتقفها ولو من أفواه المشركين » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « هلاك أمتى فى شيئين : ترك العلم ، وجمع المال » .

مكان الزكاة فى الاسلام

من الشئون الاجتماعية

إن للمجتمعات شئونا بصلاحها تصلح المجتمعات ، وبفسادها تفسد المجتمعات ؛ ولا نعلم أمة عنيت بشئونها الاجتماعية ، فأصلحتها وركزتها على نظم قوية مثمرة ، إلا تماسكت حياتها ، واضطردت عزتها ؛ وكذلك لا نعلم أمة أهملت تنظيم شئونها الاجتماعية إلا تمكنت منها روح الفوضى ، وتأخرت فى مضمار التسابق الاجتماعى ، ثم عاجلها الله بالفناء أو الذل والاستعباد : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

هذا مبدأ شهد به التاريخ ، وأرشدت اليه المثلات ، ولفت اليه القرآن ، ونوه به فى غير آية : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » .

بهذا المبدأ آمن حضرة صاحب الجلالة مولانا ملك مصر ، الذى تغذى بلبان الإصلاح النقية ، فرأى ، حفظه الله ، أن صلاح أمته لا يكون إلا عن طريق إصلاح شئونها الاجتماعية، فأنشأ لأول مرة فى تاريخ مصر حديثه وقديمه ، وزارة حملها تنظيم هذه الشئون ، على وجه تتخذ به الأمة سبيلها الى الحياة الطيبة والعيش الرغيد .

ويسرنى ، كما يسر المصريين جميعا ، أن هذه الوزارة تؤمن بأن لكل مجتمع طابعا خاصا ، ترسمه له قوميته الخاصة التى يكونها دين المجتمع ، ولغته ، وتقاليده الطيبة ، فتقدر أن إصلاح الشئون الاجتماعية لكل مجتمع لا بد أن يكون بإيحاء القومية الخاصة لذلك المجتمع ، وأن إيحاء القوميات المختلفة بطرق الإصلاح الاجتماعى ، لا يمكن أن يكون واحدا فى جميع المجتمعات ، فإصلاح اجتماع غربى لا يكون طريقه طريقا لإصلاح اجتماع شرقى ، وإصلاح اجتماع غير متدين لا يكون طريقه طريقا لإصلاح اجتماع متدين .

على هذا الأساس يجب أن تستقبل وزارة الشئون الجديدة عملها ، فتتجه الى الإيحاء القومى فيما يختص بالدين الى أهل الدين ، وفيما يختص بالأخلاق والتقاليد الى أهل الأخلاق والتقاليد ، وفيما يختص بالصحة والنشاط البدنى الى أهل الصحة والنشاط البدنى ، وفيما يختص بالاقتصاد والتدبير الى أهل الاقتصاد والتدبير .

وبهـذا تتنوع لجان العمل ، وتتمثل فيها طوائف الاخصائيين فى الشئون الاجتماعية ، بعناصر تبدى إيحاء قوميتنا الخاصة ، كل فيما يختص بدائرته .

ويجب أن يكون هذا عهدا بين الوزارة وهذه العناصر ، يوجب أولاً على هـذه العناصر أن تعمل جهـدها مخلصة فى تحرى إيحاء القوميـة الخاصة ، ويوجب ثانياً على الوزارة ، إذا ما تحققت من صلاح المقـترح ، أن تعمل بـكل ما منحت من إمداد مليـكها المصلح ، على تنفيذ ذلك المقترح ، وإسداء نفعه وخيره للبلاد .

وليجعل الجميـع نصب عينيه قوله تعالى : « وتَعاوَنوا على الـبر والتقوى » وقـوله تعالى : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصَوْا بالحق، وتواصَوْا بالصبر » .

وعلى هـذا الأساس أتحدث عن مكان الزكاة الاسلامية من الشئون الاجتماعية ، وبعبارة أخرى : عن الصلة التى وضعها الاسلام لتنظيم العلاقة بين الأغنياء والفقراء ، والمصالح العامة التى تتوقف عليها نهضة الأمة وتقدمها . ويجب أن نعلن هنـا أن الاسلام ليس دينـا روحيا فرديا ، تنحصر مهمته فى صرف الانسان عن دنياه الى أخراه ، وإنمـا هو دين اجتماعى قبـل كل شىء . . . دين له فى كل شأن من شئون الاجتماع تنظيم تقصر دونه عقول الحـكماء والفلاسفة ، دين مهمته أن يأخذ بالانسان الى السعادة فى الحياتين ، وأن يوجهه الى العمل للدنيا كأنه يعيش أبداً ، والى العمل للآخـرى كأنه يموت غـدا : « من كان يريد ثواب الدنيا ، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » . دين يرى أن سعادة الآخرة من سعادة الدنيا ، وأن سعادة الآخرة تتطلب قوة فى الحق ، ونهضة فى العمل الصالح ، ورغبة فى عمل الخير ، وأن من كان فى هذه الدنيا أعمى عمـا تتطلبه الآخرة فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا . . .

وسيظل المسلمون فى جميـع بقاع الأرض حيارى مضطربين ، الى أن يفهموا علاقة دينهم بالحياة الاجتماعية ، ويستقبلوا تعاليمه ، ويتخذوها عدّة فى حياتهم ، وطريقا لسعادتهم .

وهذه الزكاة ، التى جعلها الاسلام عبادة من العبادات ، وركنـا من أركان الدين ، سيرى فيها حضرات القراء أن الاسلام حتى فى عباداته لم يـكن إلا تهذيبا للفطرة الانسانية ، وتنظيما لشئون الجماعة .

بنى الاسلام فى العقيدة والعبادة على أركان خمسة : التوحيد ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج . ويطول بنا القول إذا بيّنا علاقة كل هذه الأركان بالشئون الاجتماعية . ونجتزئ الآن بأن التوحيد هـو الركن القلبى الذى يشاد عليه صرح الخير كله . والصـلاة والصوم ركنان بدنيان قصد بهما إعداد النفوس لعمل الخير ، والدعوة اليه . والزكاة ركن مالى قصد به تنظيم

شأن اجتماعى عظيم له خطره فى حياة الأمم ، وأخلاق الأفراد ، وهو علاقة الأغنياء بالفقراء ، وبمصالح المجتمع .

قضت الحكمة الإلهية ، أن يكون الناس مختلفين فى الدرجات ، متفاوتين فى الغنى والفقر ؛ وقضت بأن يعيش بعضهم تحت ظل البعض ، يعمل له ، ويستمد رزقه من رزقه : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا . . . »

وعلى هـذا النظام الاجتماعى ، قامت الأعمال ، ودارت الحركات ، واشتدت المنافسات حول الحصول على العيش ، والارتقاء ؛ ولـكن الشح الذى طبع عليـه الانسان جعل من اختلاف الناس فى المواهب والاستعداد ، وتفاوتهم بالغنى والفقر ، سببا فى مرض اجتماعى خطير : ذلك أنه شغل الأغنياء بأموالهم حتى ألهاهم عن حق الفقير والمسكين ، والعامل والضعيف ، ونمت فيهم فـكرة الأثرة والاستغلال ، وأحس الفقير بضيق فى صدره أخذ يتلمس له طريقا للخروج فلم يجد سبيلا ، فتولد عنده حقـد على الغنى لم يلبث أن انفجرت به صدور الفقراء نارا حامية يصطليها أرباب الأموال ، وقاموا ينادون فى بعض الأمم المتحضرة ، بالغاء نظام الملـكية الفردية ، فاضطرب حبل الجماعة ، واختل توازنها ؛ وانتهى الأمر بهم الى إنـكار الأديان والقوانين ، وأريقت فى ذلك دماء الملايين من النفوس البشرية . وما كان ذلك إلا نتيجة إهمال الغنى لحق الفقير ، واستغلاله لمنفعته الشخصية . . . !

أما الاسلام فقد قدر ، وهو فى أول مرحلة من مراحل الدعوة ، قبل تهيئة النفوس للنظم والقوانين — خطر إهمال حق الفقير ، كما قـدر فوضى النظام وفساد الاجتماع إذا هو ألغى الملـكية الفردية ؛ فأقر الملـكية الفردية ، وأجرى سنة الـكون فى مجراها الطبيعى ؛ ثم وضع الطرق الواقية من شر الطغيان المالى ، القاضى بتحكم أرباب الأموال ، واستغلال الفقراء . وبهذا احتفظ بسنة القوانين ، وأصول الجماعات والحقوق الفردية ، وأمن فى الوقت نفسه فتنة الفوضى الشيوعية ، فوقف وسطاً بين الإفراط والتفريط ، شأنه فى كل تشريع : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتـكونوا شهداءَ على الناس ، ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا » .

وإنى أحدثكم عن مجمل المبادئ التى اتخذها القرآن فى العهدين : عهد الدعوة بمكة ، وعهد التقنين بالمدينة ، اتخذها علاجا لتلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة :

أعلن القرآن أن المال فى يد الأغنياء ليس إلا وديعة الله ، استخلفهم فى حفظه وإدارته ، وتوزيعه بما رسم لهم من طرق صالحة مفيدة : « آمِنوا بالله ورسوله وأنفِقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه » ، « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

أشعرهم بالوحـدة القومية الموجبة للتـكافل والتعاون والإيثار ، وأن المال المملوك للبعض قوام المجتمع كله : « ولا تؤتوا السفهاءَ أموالَـكم التى جعلَ اللهُ لـكم قِياماً » .

حارب فيهم خلق الشح الذى يمنع من التراحم والبذل ، ومساعدة الضعيف : « ومَن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون » ، « ولا يحسَبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيُطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض » ، « إياكم والشحّ ، فانما هلك من كان قبلكم بالشحّ : أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا » ، « اتقوا الظلم فان الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ؛ واتقوا الشحَّ فان الشحّ أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم » . ولعلك لا تجد أصرح ولا أقوى من هذا التعبير فى تصوير الخطر الاجتماعى الذى ينبعث من الشح بحق الفقير والمحتاج . والشحُّ بلا ريب من أكبر الآفات التى تضر بالمجتمع الانساني ، وتقضى على حياة الأمم وصلاح العمران ؛ فهو يمنع التعاون والتراحم ، ويغرس الحقد ، ويولد ثورة النفوس ، ويرمى بالمجتمعات فى الهوّات السحيقة .

هدّد الأغنياء إذا هم قصّروا فى حق الفقير ، واستغلوا حاجته لمنفعتهم الشخصية : « يَمحَقُ اللهُ الربا ويُربِى الصدقات » ، « اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » . « ويل للأغنياء من الفقراء ! » « إن الصدقة تدفع البلاء » « صنائع المعروف تقى مصارع السوء » . وإنا لندع تفسير هذه الحرب التى آذن الله بها المستغلين ، وتفسير ذلك الويل الذى يصيب الأغنياء من الفقراء ، وتفسير ذلك البلاء الذى تدفعه الصدقة ، وتفسير مصارع السوء التى تقى الانسانَ منها صنائعُ المعروف ، ندع تفسير كل ذلك الى ما هو الواقع الآن فى أمم الحضارة من حرب الطبقات ، والى ما تنطق به الحوادث والوقائع ، فانه أعظم مفسّر يتلاشى أمام روعته البيانية ، كل مقال وبيان .

حرّكَ العواطف ، ونبّه الوجدان الى العطف الانسانى ، والعدة عليه بالثواب والحياة الطيبة . وحسبك فى عناية القرآن الكريم بالفقير والمسكين ، والحث على إطعامهما ، والقيام بكفايتهما ، أنك لا تكاد تجد سورة من سور القرآن إلا وفيها ذكر للفقير والمسكين ، أو ذكر لأحدهما .

جعل لهما حقا فى الصدقات المفروضة (١) ، جعل لهما حقا فى الغنيمة (٢) ، جعل لهما حقا فى الفىء الذى يمكّن الله منه جماعة المسلمين من غير قتال (٣) ، جعل لهما حقا فى المال إذا اقتسمه أربابه بمحضر منهما (٤) ، جعل لهما كفارة اليمين (٥) ، جعل لهما كفارة اعتداء المحرم على الصيد (٦) ، جعل لهما كفارة الظهار (٧) ، جعل لهما فدية الإفطار فى نهار رمضان (٨) .

---

(١) ارجع الى الآية ٦٠ من التوبة (٢) ارجع الى الآية ٤١ من الانفال (٣) ارجع الى الآية ٧ من الحشر (٤) ارجع الى الآية ٨ من النساء (٥) ارجع الى الآية ٨٩ من المائدة (٦) ارجع الى الآية ٩٥ من المائدة (٧) ارجع الى الآية ٢ من المجادلة (٨) ارجع الى الآية ١٨٤ من البقرة .

وقد بيّن الحكمة الاجتماعية السامية ، فى إعطائهم هذا العطاء ، وهى الخوف من أن يستأثر بالأموال طائفة الأغنياء يتداولونها فى أيديهم خاصّة ، فيثير الفقراء عليهم حربا طاحنة ، وذلك قوله فى آية الفىء : « كى لا يكونَ دُولةً بين الأغنياء منكم » .

ثم يجعل العطف عليهما بعد ذلك ، والقيام بحقهما ، من خصال البر الدالة على صدق الإيمان والتقوى : « وآتى المالَ على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلين وفى الرّقاب » .

ثم يمتدح الصدقات بوجه عام ، ويبين أنها خير للجماعة غير محدود ، أعلنت أم خفيت : « إن تبدوا الصدقات فنعمّا هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » .

ثم يبالغ فى الوصية باليتامى والمساكين ، فيقرنها بتوحيد الله والإحسان الى الوالدين ، فى غير آية ؛ اقرأ : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين » ، « وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا » . ثم يقول : « وآتِ ذَا القربى حَقَّه والمسكينَ وابنَ السبيل » .

ثم ينبّه الناس على ما يصرفهم عن مراعاة حقّ الفقير والمسكين ، فيذكر البخلاء ، والآمرين بالبخل ، ويذكر العذاب المهين ، الذى أعدّ للكافرين الذين خلت قلوبهم من الرحمة : « إن الله لا يحبّ من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

ولما كان التبذير من أسباب فقدان المال وحرمان الفقير ، شدّد النكير على المبذرين ، وبيّن سوء عاقبتهم ، فقال : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . ومخافة أن يحمل ذلك البيان على التقتير فيمنع حق الفقير ، أرشد سبحانه الى الطريق المعتدل فقال : « ولا تجعلْ يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعدَ ملوما محسورا » .

ثم تعالوا واستمعوا بعد ذلك الى القرآن ، وهو يعتبر أن إطعام الفقير والمسكين هو العقبة الوحيدة ، التى إذا اقتحمها الانسان وصل الى السعادة الحقة ، التى لا يشوبها تنغيص ولا ألم : «فَلا اقْتَحَمَ العقبَةَ ، ومَا أدراك ما العقبةُ : فكُّ رقبةٍ ، أو إطعامٌ فى يومٍ ذى مَسْغَبةٍ ، يتيما ذا مَقْرَبةٍ ، أو مسكينا ذا مَتْرَبةٍ . ثم كان من الذين آمنوا وتواصَوا بالصبر ، وتواصوا بالمَرْحَمَةِ . أولئك أصحاب الميمنة » .

حسب الفقير أن الله لم يذكر فى كتابه شأنا من الشئون باسم العقبة إلا فى هذا الموضع ،

موضع تنظيم علاقته بالغنى ، فاقرءوا القرآن وتتبعوه لتعلموا مقدار حدب القرآن على الفقير والمحتاج والضعيف .

اسمعوا قول الله فيمن لا يحض على طعام المسكين ، وكيف اعتبرهم من المكذبين بالدين ، الذين لا تنفعهم صلاة ولا خشوع : « أرأيتَ الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يَدُعُّ اليتيمَ . ولا يَحُضُّ على طعام المسكين . فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

اسمعوا قول الله فى المجرم الذى يصيبه خزى الله ونكاله : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعامٌ إلا من غِسْلينٍ . لا يأكله إلا الخاطئون » .

اسمعوا قول الله فيمن يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله : « والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم » .

اسمعوا قوله فى أرباب الأموال الذين لا يقومون بحق الفقير والمسكين : « كلاّ ! بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضُّون على طعام المسكين . وتأكلون التُّراثَ أكلاً لمًّا . وتُحبون المالَ حباً جمًّا . كلاّ إذا دُكّت الأرض دكًّا دكًّا . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجِىء يومئذٍ بجهنَّمَ ، يومئذٍ يتذكَّرُ الإنسانُ وأنى له الذكرَى . يقول ياليتنى قدَّمتُ لحياتى . فيومئذ لا يعذِّب عذابَه أحد . ولا يُوثِقُ وَثاقَه أحد » .

ثم تعالوا واسمعوا جواب المجرمين حين يسألون يوم القيامة : « ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين » . . .

وأخيرا تعالوا واسمعوا قول الله فى أرباب الأموال الذين يحترفون التكاثر فيها حتى تلهيهم عن حق الفقير والمسكين : « ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ، كلاّ سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين . لَتَرَوُنَّ الجحيم . ثم لَتَرَوُنَّها عينَ اليقين . ثم لتسألُنَّ يومئذ عن النعيم » . . . هذا نزر قليل من علاج القرآن لمشكلة الفقير مع الغنى .

***

حرك عواطف الأغنياء بكل الطرق ، وأرهف وجدانهم ، واستدر عطفهم على الفقير والمسكين ، إصلاحا لهم وللمجموعة ، تارة بالترغيب ، وأخرى بالترهيب . وبعد أن استتب الأمر لجماعة المسلمين ، وتهيأت النفوس للقوانين والنظم ، وضع للفقراء حقوقا كمورد دائم .

وضعه فى الكفّارات ، والأجزية على الأخطاء التى يرتكبها الانسان فى حياته الشخصية أو عباداته ، وضعه فى الزكاة فرضا من الفروض الدينية ، ينفذه بالقوة ويقاتل من امتنع من أدائه ، وضعه فى الذهب والفضة ، وفى البضائع التجارية ، وفى المواشى ، وفى الزرع ، بنسب لا ترهق الغنى ، وتسعف المسكين والفقير ، وتصلح شأنه ؛ بنسب يفوق مجموعها مجموع ما يصرفه أغنياؤنا فى ترفهم وبذخهم فى البلاد الأجنبية كل عام من غير فائدة تعود عليهم وعلى أمتهم .

وقد كان للزكاة فى صدر الاسلام نظام خاص ، وكان للحكام بها عناية خاصة فى جمعها وصرفها . كانوا يجهزون الجيوش ، ويدفعون المغارم ، ويتألفون قلوب الضعفاء ، ويعينون المحتاجين . أما اليوم فقد خف عن كاهل الزكاة كثير تصرفه الدولة من مواردها الخاصة على المصالح العامة ، كالجيش والتعليم ، ولم يبق ما يخشى شره ، ويهدد العالم بثورته سوى الفقير وحاجته .

فهل للأغنياء أن يخرجوا هذه الزكاة الواجبة عليهم ، ويصرفوها فى مصالح الفقير ، فيسلوا بها حقده عليهم ، ويصير عونا لهم ، يحرس أموالهم ، ويعمل على تنميتها ، حتى يرفرف على الجميع علم الطمأنينة والسلام ؟!

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم ، وينشئوا بها المصانع والمستشفيات التى لا تفى موارد الدولة بإنشائها ، فتطهر الأمة من جراثيم المرض ، ويخف عنها ضغط هذا الجيش العاطل الذى تبدو كتائبه فى المتسولين الذين يملأون الشوارع والأزقة ، وفى المتشردين الذين يهددون الأمن ، ويقلقون راحة الجميع ، وفى المتعلمين وأنصاف المتعلمين وأشباههم ، مما تطالعنا باحصائهم فى كل عام نتائج الامتحانات ، وكشوف المنقطعين عن طلب العلم ؟!

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم فيصلحوا من شأن هؤلاء ، ويوجدوا منهم رجالا عاملين فى الحياة ، يشعرون بالعزة والكرامة ، ويشعرون بأنهم أعضاء حية من الأمة لها يعملون ، وعنها يسألون ؟!

هل لهم أن يضعوا أيديهم فى يد وزارة الشئون الاجتماعية ويتضامنوا معها على إخراج نظام خاص للزكاة والصدقات ، به ينتشلون البلاد من خطر الفقير والعاطل ، فتطمئن الجماعة على حياتها ، وتنتفع بأموالها وبنيها ؟!

إن الدين الاسلامى لم يترك فرصة لإحياء قلب الفقير إلا أمر بانتهازها . ولا يغيب عنكم أيها الأغنياء موقفه من الفقير عقب صيام رمضان ، فى الوقت الذى تعدون فيه العدة لاستقبال العيد ، الذى جعله الله مظهر فرح شامل ، لم يفته أن أوجب صدقة الفطر توزع على الفقراء والمساكين ، فيكون لهم منها سلوة عما أصابهم من فقر ومسكنة .

فإذا قامت وزارة الشئون الاجتماعية ، تدعو الناس الى المبادرة باخراج زكاة الفطر إصلاحا لشأن له خطره فى المجتمع ، فقد قامت بواجب يحتمه عليها الدين ، واجب يحتمه عليها الاجتماع الصالح الذى تنشده وتعمل عليه . وإذا قامت تدعو الناس الى إيداع صدقاتهم فى صناديق تشرف عليها جهات نزيهة ، وتصرفه على الأسر التى أخنى عليها الدهر ، ويمنعها الحياء من الظهور بمظهر السائل والمحروم ، فقد قامت بواجب يحتمه عليها الدين ، واجب يحتمه عليها المجتمع الصالح الذى تنشده وتعمل عليه . وقد ذكر الله الفقراء الذين لا يستطيعون ضربا فى الأرض وأن الجاهل يحسبهم أغنياء من التعفف : « لا يسألون الناس إلحافاً » . وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل على صدقة الفطر ذلك الصحابى الجليل أبا هريرة ، على الأسرة الكريمة التى يمنعها حياؤها عن أن تسأل ... فلم تفعل وزارة الاجتماع إلا ترسمها لخطة الصدر الأول فى إعانة الفقير ، والمحافظة على كرامته .

***

هذه مكانة الزكاة والصدقات من الشئون الاجتماعية ، وهى مكانة القطب من الرحى . وهذا هو موقف الاسلام من الزكاة والصدقات ، وهو موقف يخفف من وطأة الأغنياء على الفقراء ، ويبعث فى الفقراء روحا طيبة للأغنياء ، ويهيئ للجماعة أن تنتفع بهؤلاء وهؤلاء .

وبعد : فليسمح لى حضرات الأمراء ، والأغنياء ، والمفكرين ، أن أصارحهم بكلمة صريحة حاسمة :

إن التطور الفكرى المتناقض ، قد تكاملت أسبابه ، وبدت مظاهره ، وصرنا به على ملتقى السبل ، فإما أن نسير فى سبيل الرأسمالية ، كما يلوح فى أفق الأغنياء ، فنصطليها نارا حامية من العاطلين والفقراء ؛ وإما أن نسير فى سبيل الشيوعية ، كما يلوح من أنات العاطلين والفقراء ، فنصطليها تخريبا وتدميرا !! ولقد جاءنا من الأنباء ما فيه مزدجر ، وأرشدنا ديننا ، وكتابه قائم بين أيدينا ، الى السبيل السوى الذى يقينا شر هذه ، وشر تلك ، ويجعل الأمة وحدة متكافلة فى البر والتقوى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

اللهم هل بلغت ؟ !! اللهم اشهد !

محمود شلتوت

أنبل الأخلاق الاسلامية

لعل مما يستلفت النظر ، ويبهر العقول ، من غيث الرحمة الاسلامية ، الذى أدرك العالم ، وقد مزقه الفساد ، وقوضته الفوضى فى كل شيء : فى الأنفس ، والأعراض ، والأموال ، ولوث النفوس فيه داء الأثرة ، والطمع ، ورذيلة الغدر والخيانة ، الى غير ذلك من عوامل الفناء والشقاء ، نقول : إن أنبل ما يبهر العقول مما جاء به الاسلام من الأخلاق ، المحافظة على العهد ، والصدق فى احترام المواثيق ، والتحذير من نكثها ، والوعيد الشديد على الخيس بها ، والحنث فيها ، لتصفو العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وتطمئن النفوس ، وتحسن الصلات بين الأمم ، وتسير فى جو كله هدى ونور ، لا غدر فيه ولا خيانة ، فيتسع بذلك طريق الحق ، يسبح كيف يشاء ، وأنى شاء ، يعمّر البلاد ، ويصلح العباد .

مرت على الإنسان دهور طويلة ، وتقلبت عليه أطوار وأحوال ، وغشيته غَـواشٍ ، وأحاطته أحداث ، وعالج إنقاذه مصلحون كثيرون ، وأرسل الله رسلا مبشرين ومنذرين . . . فأى دين من الأديان ، أو شريعة من الشرائع ، عنيت عناية الاسلام بالمحافظة على العهود والمواثيق؟

فهذا كتابه الكريم ، يجعل حفظ العهد من دعائم الفلاح والسعادة ، حيث يقول : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون » الى قوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وها هو ذا رسول الاسلام ، يرفع من شأن المحافظة على العهد ، واحترام الميثاق ، فيوجب على جميع من يدينون به أن يحترموا عهدا أعطاه للأعداء أقـلُّ رجل مسلم ، وتوّعد بالشقاء فى الدنيا ، والعـذاب الشديد فى الآخرة ، من فرّط فى ذلك ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : « ذمة المسلمين واحدة ، يسعى (١) بها أدناهم ، فمن أخفر (٢) مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يُقبلُ منه صَرف (٣) ولا عَـدل » .

وقال أيضا : « ثلاثةٌ المسلم والكافر فيهن سواء : مَن عاهدته فوفِّ بعهده ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فِـصلـها ، مسلما كان أو كافرا ، ومن ائتمنك على أمانة فأدها اليه ، مسلما كان أو كافرا »

فهل سمع العالم قديمه وحديثه ، بدين أو شرعة ساوت بين جميع أتباعها فى احترام عهودهم ،

(١) أى يتصرف فيها . (٢) اى نقض عهده الذى أعطاه لغيره . (٣) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية . وقيل الصرف : الشفاعة ، والعدل : الفدية .

ووجوب تنفيذها ، ولم تفرق فى ذلك بين عهد القائد والجندى ، والصغير والكبير ، والحر والعبد ، والرجل والمرأة ؟ فكل أولئك محترم عهده ، نافذ على جميع من عداه من المسلمين .

هذا فضلا عما تضمنه هذا المبدأ السامى من تربية ملكة الإحساس بالكرامة فى نفس كل مسلم ، وإيقاظ الشعور بعزة النفس ، والاعتداد بالرأى ، وتحمل المسئوليات ، فيقوى تفكيره ، وينضج رأيه ، وتسمو عن الصغائر نفسه .

فهل بَصُر المنصفون بهذا النبل فى الاسلام ، بعد ما ملأ أسماعهم ، وشَخَص أمام أعينهم ، مايزخر به محيط العالم المادى اليوم ، من تهالك عبّاد المادة ، وعشاق السيطرة الغاشمة ، على تمزيق العهود بعد توكيدها ، وانتهاك حرمة المواثيق التى أغلظوا الأيمان على احترامها ، وسجلتها هيآتهم النيابية ، وأقرها وزراؤهم ؟! يرتكبون كل ذلك ، ويفخرون به إن رأوا وراءه مغنما ولو حقيرا ، وأحسوا بضعف صاحب العهد ، وفقده القدرة على صد طغيانهم !! أما الكرامة ... أما الشرف ... أما العظمة الصحيحة ... فكل أولئك لا يقام له وزن ، ولا يقدر له حساب !!

ألم نشهد فى عصرنا هذا بعضَ مَن نفخه غرور القوة يقف على ربوة الاستهتار ، ويؤذن فى الناس بأن المعاهدات لا تعدو قصاصات أوراق لا يتمسك بها على غير ما تقع إلا الضعفاء ؟ ألم نر هؤلاء يعدّون الغدر والخيانة من الكياسة ، والتظاهر بالود وإضمار الكيد والإيذاء من السياسة ، حتى صار معروفا لديهم أن هناك معاهدات علنية ، ومن ورائها معاهدات سرية ، تنقضها عروة عروة ، وتهدمها لبنة لبنة ، وأصبح مقررا أن ليس للأقوياء أمان ، ولا لعهودهم حفاظ ، ولا لمواثيقهم حرمة ؟!

كل هذا والاسلام واقف فى هذا الجو المظلم ، أبيض ناصعا ، يتلو على الناس كافة :

« وإمّا تخافَنّ من قوم خيانةً فانبِذ إليهم على سَواء ، إن الله لا يحبّ الخائنين » .

حرّم على أتباعه أن يفاجئوا معاهديهم ، إذا أحسوا منهم خيانة ، أو يأخذوهم على غرة ، وأوجب عليهم إعلانهم بقطع العلائق ، وانقضاء حكم الميثاق ، حتى لا تكون هناك لمتوهم ظنة ، ولا لمتقول عذر . ثم يتلو :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غَزْلَها من بعد قوة أنكاثا (١) ، تتخذون أيمانكم دَخَلاً (٢) بينكم ، أنْ تكونَ أمّةٌ هى أرْبَى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، ولَيبيِّننّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » .

(١) الأنكاث : جمع نكث كحمل وأحمال . والنكث : مانقض ليغزل ثانية ، وهو منصوب على أنه مفعول ثان على تضمين نقض معنى جعل ، كما تقول : فرق الشىء أجزاء أى جعله أجزاء .

(٢) الدخل بفتح الدال والخاء : الدغل والغش والخيانة .

فهل هناك نبل وسمو وراء هذا النبل وهذا السمو ؟ كتاب يحفز أهله على الوفاء بالعهد ، ويشعرهم مراقبة الله وحسابه ، ويحظر عليهم الدخل ، والغش ، والخيانة فى الأيمان ، ويحذرهم من أن يكونوا عبيد القوة ، فيعاهدوا هذا إذا كان قويا ، وينبذوا إليه عهده إذا رأوا من هو أقوى منه ، أو يخدعوا خصومهم بالعهود والأيمان حتى تحين لهم الفرص ، فينقلبوا عليهم أعداء .

كل أولئك خلال شر وضعة ، حرمها الاسلام على أتباعه ، تنزيها لهم ، وتشريفا لأقدارهم ، ورفعا لمنزلتهم فى نظر الكمال الخلقى ، والحق والفضيلة ، التى لا تقوى عوامل الهدم على النيل منها ، مهما تقلبت الأحوال ، أو تغيرت العادات .

وهل يتصور عقل ، أو يخطر على قلب بشر ، أن يبلغ تقديس العهد عند شرع من الشرائع حداً يتحتم فيه على المؤمن به أن يترك أخاه فى الدين ، وهو يستغيث به ويستنصره ، يلتهمه ظلم الكافرين ، وتنال منه قسوتهم تقتيلا وتشريدا ، مع قدرته على نصرته ، وصد عدوانهم عنه ، وليس لكل ذلك من سبب سوى المحافظة على العهد الذى قطعه مع هؤلاء العادين ، فلم يستطع منه فكاكا ، ولا عنه تحويلا ؟

« وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير » .

ذلك لأن الاسلام شرعة لا تعرف الغدر والخيانة ، ولا تقر إلا السياسة العادلة التى يستوى فيها الأتباع والأعداء .

وإنما عنى الاسلام هذه العناية بالمواثيق والأيمان ، لأنها غالبا تكون وليدة تفكير عميق توزن فيه الأمور بدقة ، وتقدر بحساب ، وينظر فيه الى العواقب القريبة والبعيدة ، ويضحى فيه بنزوات النفوس وشهواتها .

وبالجملة ، فالحكم فيه ـ غالبا ـ يسعى وراء المصلحة الحقة ، والعدالة المطلقة ، بقدر الإمكان . فاذا لم يحصنها الشارع بما يحفظها ، انطلق الشر من عقاله لأى بادرة ولو صغيرة ، وجمحت سورة الغضب والطيش ، وجلب الشيطان خيله ورجله ، فمزق الصلات ، وقطع العلائق ، وعاث فى الأرض فسادا .

لكل ذلك يقول كتاب الاسلام ، بعد أن أوصى وشدد بالمحافظة على العهود :

« إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

من كل هذا ، ومن بعضه ، نقف على قطرة من فيض فضل الله على الانسانية كافة ، بهذا الشرع الحكيم ، الذى انتفع به من آمن به ومن كفر ، ومن أطاعه ومن عصاه ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

عبد الجليل عيسى
شيخ معهد شبين الكوم

نظرات فى المذاهب المتطرفة

الشيوعية وسوء آثارها فى الهيئات الاجتماعية

بعد وصول الانسانية من المستوى العقلى الى درجة تسمح لها بالتفكير فى وسائل تحسين حالتها الاجتماعية ، عُنى أفراد من أهل البصر منها بتخيل نظم ظنوا أن الجماعات لو قامت عليها ، وأخذت بأصولها ، تتأدى الى حالة أرفع مما هى عليها فى حياتها الراهنة .

ولكن حياة الشعوب الاجتماعية تقوم على سنة طبيعية ثابتة من التطور التدريجى ، فلا يستطاع نقلها من حال الى حال بنظام يُبتكر أو ببرنامج يُتخيل . ومن هذا القبيل كانت جمهورية أفلاطون ، وسياسة أرسطو ، والمدينة الفاضلة للفارابى ، وكل ما حدث فى القرون المتأخرة من المذاهب الاشتراكية والشيوعية والفوضوية . فمن أراد أن يعرف ما يفعله إطلاق العنان للخيال فى هذا المجال ، فلينظر فى الأصول التى تقوم عليها هذه المذاهب . فقد أتى كثير منها بأمور يأنف الضمير البشرى أن يعيرها التفاتا ، كرأى بعض الفرق الاشتراكية إبادة جميع الضعفاء وأصحاب العاهات حتى لا يبقى إلا الأقوياء على مكابدة الأعمال ، كى لا يكون المرضى والضعفاء عالة على المجتمع ؛ وكنُصح بعضها أن يُحذف الزواج ويُجعل جميع النساء لجميع الرجال ، وما يولد من هذه المخالطات تستولى عليه الحكومة ، وتربيه على نفقتها ، ثم تقذف به الى المجتمع ليؤلف جيلا جديدا ، وهلم جرا ؛ وكتحتيم بعضها وجوب حذف الحكومة والدواوين وترك الناس لأنفسهم ينظمون شئونهم عرفيا ، زاعمين أن النواميس الطبيعية فى تدبيرها العلاقات بين الناس ، خير من النظم والقوانين التى تضعها الحكومات . قيل كل هذا وكتب ؛ ولكن الأمم جرت على سجيتها ، مكتنَفة بالعوامل المحيطة بها ، ولم ترفع بهذه الخيالات رأسا .

الأمر الذى تقوم عليه فتنة غلاة الاشتراكيين هو دعواهم أن الفاقة المنتشرة بين الدهماء منشؤها سوء توزيع الثروة الاجتماعية ، وأنهم قد هُدوا تحت ضوء العلوم الاقتصادية الى نظم لو اتُّبعت لعاش الناس جميعا فى بحبوحة الرغد والرفاهية . وأشد هذه المذاهب تمدحا وتزيدا الشيوعية ، وقد وقعت فى حبائلها جماعات فازدادت تغلغلا فى العُدْم والجاهلية .

ونحن إن اختصصناها بالكلام فى هذا البحث فليس ذلك باعتبار أنها شكل حكومى لأمة بعينها ، ولكن باعتبار أنها مذهب أصبحت له دعوة ودعاة يروِّجونه ما وجدوا آذانا تصغى إليهم .

الأصول التى تقوم عليها الشيوعية :

المذهب الشيوعى يقوم على أصول ثلاثة رئيسية : (أولها) محو المِلكية الفردية ، والحقوق الوراثية ، وجعل أرض الأمة وكل ما عليها ملكا لجميع أفرادها على السواء .

(ثانيها) حذف رءوس الأموال الفردية ، وجعل الحكومة قيّمة عليها .

(ثالثها) استئصال شأفة الدين من المجتمع ، باعتبار أنه ألد أعداء الشيوعية ، لتسلطه العظيم على عقول العامة ، وبثه فيها مبادئ تناقض إيجاد الفردوس الأرضى فى زعمهم .

ونحن نناقش هذا المذهب الحساب فى كل هذه الأصول ، لنثبت للناس أنه لا يخالف العلم فحسب ، ولكنه يخالف الأوضاع الطبيعية أيضا ، ويحاول هدم جميع البواعث التى تعمل على حفظ الانسانية وترقيتها ، سواء أكانت مادية أم أدبية .

أما أول هذه الأصول وهو محو الملكية الفردية ، فمناقض للوضع الطبيعى ، فإن أول ما كان عليه الناس أيام همجيتهم الأولى كان عدم الملكية ، لانحصار العناية فى أمر واحد هو الحصول على الغذاء ، فكان الأفراد يهيمون على وجوههم فى القفار ليصطادوا بعض الحيوانات ، أو يجوسون خلال الغابات لاستخراج بعض جذور الأشجار . فلما هُدوا الى استغلال الأرض ، كان كل منهم يزرع ما حول بيته ، والأرض واسعة والناس قليلون .

فلما ارتقى الاجتماع ، وازدادت معرفة الانسان بالزراعة ، وتميزت الأسر ، وبدأت تتحدد الحقوق ، وُجدت الملكية ؛ فالملكية ترق عن حالة الشيوعية التى سبقتها ، وكما وُجدت الملكية وُجد الزواج ، ووُجدت الحقوق والواجبات ، ووُجدت وشائج الاجتماع ومقوماته وحوافظه ، فتركب بعد سذاجته الأولى ، ومن تَرَكبه نشأت قوة تماسكه ، ومتانة ترابطه ، وشدة مناعته ، وابتنى على هذا التركب كل ماللانسانية من حظ فى البقاء والاستمرار والترقى الى أبعد الغايات . وبمجرد النظر الى حالة الجماعات يهجم بك على الفرق بين ما تنتجه حالة التركب الاجتماعى ، وما تنتجه حالة البساطة الفطرية . وإنك لتعجب أن ترى جماعات ساذجة التركب لا تزال باقية على ما كانت عليه منذ ألوف السنين ، على حين أن التى ساعدتها الأحوال المحيطة بها على التركب قد بلغت شأوا بعيدا من المدنية . فالملكية ترق عن الحالة الشيوعية ، فإن عادت أمة إليها زايلها جميع ما ابتنى عليها من وشائج الاجتماع وروابطه ومناعاته ، فأصبح رهن ثورة تهب فيه تحلل عناصره ، أو شدة تصادفه تفكك أوصاله . لذلك يضطر القائمون عليه أن يمسكوه فى دائرة الاستقرار الاجتماعى بالقهر والارهاب ، ويكون هو فى أثناء ذلك سريع التقلب يتربص أن يجد فرصة للتفكك لينتهزها .

وقادة مثل هذه الجماعات الشيوعية إنما يتوخون بمحو الملكية والوراثة ، أن يمنعوا أن يتناول بعض الأفراد من الثروة العامة فوق ما يكفيهم فيدخروه ويحجبوا غيرهم عن الانتفاع به . وما دروا أنهم بهذه الوسيلة التى لن يكون لها أثر يذكر فى تحسين الحالة الاقتصادية للمجموع ، يقتلون فى نفوس الآحاد روح التنافس المشروع ، فيصبح الكافة سواسية فى الفاقة

والعُدْم ، ويحرم المجتمع من المشروعات العظيمة التى يتوق اليهما ذوو الكفايات المالية طلبا للكسب .

ولا يعترض علينا بأن وجود الحكومة قيِّمة على الثروة العامة ، يكفل حصول تلك المشروعات بواسطة لجان تؤلف لذلك ، فاننا نرد هذا الاعتراض بقولنا : إن فى قيام الحكومة مقام الأفراد والشركات خنقا لعاطفة الإقدام فى نفوس الآحاد ، وإحالةً للمجتمع الى حالة القِصَر الذى ارتقى عنه أمثالها من الجماعات ، فيصبحون فى حاجة ماسة الى حكم الإرهاب ، وهذا الحكم يقتضى بث العيون والأرصاد ، فيضحى بعض الأمة رقباء مأجورين على البعض الآخر ، فاذا مر على الأمة فى هذه الحالة ردح من الزمن أصبح تماسكها الاجتماعى صناعيا بعد أن كان طبيعيا ، وصارت عرضة للتفكك عقب أية هزيمة حربية أو كارثة اجتماعية .

وهم الشيوعية فى تحسين حالة الفقراء بمصادرة أموال الأغنياء :

يستهوى الشيوعيون الفقراء بأنهم سيجعلونهم فى رغد من العيش بحذف طبقة الأغنياء ، ومصادرة أموالهم ؛ وهو وهم كبير لا يطوف إلا برءوس الذين لا حظ لهم من العلم الاقتصادى .

كتب العلامة الاجتماعى الروسى (نوفيكو) فى كتاب له يعالج فيه مسألة الفقر :

« لقد انتشر فى العالم رأى كاد يعم الهيئة الاجتماعية ، وهو أن الفقر ما أنشب أظفاره فى الدهماء إلا بسبب سوء توزيع الثروة على الناس . ويقول أشياع هذا المذهب : إنه متى أخذت الثروة من أيدى المحتكرين لها ، وقسمت على الناس تقسيما عادلا ، ذهب الفقر ، وحل الكفاف ، وأصبح النوع الانسانى فى أرغد عيش أبد الآبدين .

« فما أجدرنا بأن يهنئ بعضنا بعضا بهذا الحل لو كان حقيقيا . . . !

« ولكن الحال وا أسفا ليست على ما يصفون ، فان الدهماء ليسوا بفقراء لأن بضعة رجال من أصحاب الملايين قد احتكروا الثروة ، ولكنهم فقراء لأن مقدار المواد الغذائية التى تنتجها الأرض لا تكفيهم . ولما كانت هذه الأزمة الغذائية ناشئة من البيئة ، فيمكن أن يقال إن الفقر ضارب بجرانه فى العالم ، لأن النوع البشرى لم يُعِدّ الأرض للإنتاج إعدادا يتفق ومصلحته الحقيقية .

« الفقر لا يُدفع بواسطة تقسيم الثروة بين الناس لسببين بسيطين :

« أولهما أن المال الذى يراد تقسيمه غير كاف لجميع حاجات الناس ، وقد تقرر ذلك بواسطة الإحصاءات . ذلك أنه لو صودرت الأرباح الفردية التى تزيد عن ١٠٠٠٠ فرنك وقسمت كلها على الناس الذين يقل دخلهم عن هذا القدر ، وجد أنه لا يخص كل فرد أكثر من ١٢ فى المائة من دخله الحالى . وبما أن الناس لا يصلون الى الرغد المرجو إلا إذا كان لكل منهم عشرة أضعاف

دخله الحالى ، أدركنا أن مسألة الفقر لا تندفع بتقسيم ثروة الأغنياء على الفقراء . . . . فإن العامل الذى يكسب الآن فرنكين يوميا ويشكو مر الشكوى من الفاقة ، لن تتغير حاله إذا أعطى الاثنى عشر فى المائة التى تخصه من مصادرة أموال الأغنياء ، إذ أن أجره لن يزيد أكثر من ربع فرنك يوميا ، فماذا عسى أن تحسن هذه العلاوة الضئيلة من حاله ؟

« أما السبب البسيط الثانى فهو ناشئ من طبيعة الثروة ذاتها . ذلك أنه إذا كان دخل المستر بيرمور مورجان الأمريكى ٨٣ مليونا من الفرنكات فى السنة ، فإن صودر هذا الدخل وقسم على إخوانه الأمريكيين ، نال الواحد منهم أقل من فرنك ، وماذا عسى أن يعمل هذا القدر الضئيل من تحسين حال الفقير الأمريكى ؟

« ولكن المستر بيرمون مورجان لن يكتسب فى السنة التالية ٨٣ مليونا أخرى لأن الأمة صادرت كسبه الشخصى ، فيكتفى بكسب بضعة آلاف لحاجته الشخصية ، وما يصدق على المستر بيرمون يصدق على جميع الأغنياء ، فإن أفادت مصادرة أموالهم مرة واحدة فلن تتكرر هذه الإفادة ، فمن يسد خلة الفقراء وحاجاتهم تجدد فى كل حين ؟ » .

ثم عمد الأستاذ الروسى الى بيان العلاج العلمى فقال :

« ثبت لنا من الفصل السابق أن حالة النوع البشرى سيئة جدا ، وأننا فقراء لأن متحصلات الأرض السنوية لا تنتج المقدار الكافى من الغذاء والملبس ، فهل هذا لأن الكرة الأرضية تعجز عن موافاتنا بما هو ضرورى لنا ؟ إن كان الجواب إيجابيا وجب علينا أن نرضى بما قسم لنا ، وأن نعتبر الفقر كما نعتبر الموت أمرا لا محيص منه . ولكن من حسن حظ العاملين أن هذا الافتراض خطأ ، فإن فى قدرة الأرض أن تعطينا ليس ما يوازى ١٠٠٠٠ فرنك سنويا لكل منا فحسب ، ولكن فى قدرتها أن تعطينا عشرة أضعافه ، فإن ينابيع الثروة فيها — كما قال الجغرافى المشهور (اليزيه ركلوز) — لا حد لها على الإطلاق » . انتهى

نقول : إذا كان هذا هو الرأى العلمى فلا يكون لحذف طبقة الأغنياء من نتيجة سوى قتل عواطف التنافس فى الصدور ، وشل ملكات الإقدام فى نفوس أهل النشاط والقوة الفياضة ، وحرمان مجموع الأمة من جهودهم العظيمة فى إقامة المشروعات النافعة ، والحكم على الكافة بحالة من العُدْم تصل بالأمة الى مكان سحيق ، وتجعلها تتربص الخلاص منه عند كل بادرة من فتنة فتأتى بشر مستطير .

أما وقد رأيت أن الشيوعية لا تستند الى أساس علمى ، من الناحية الاقتصادية ، وأنها تفكك أواخى النظام الاجتماعى ، وتحلل من ربطه ، وتذهب بحوافظه ، فإننا نرجو أن نثبت لك خطأها فى مناوأة الدين واعتباره سببا فى إثارة العداوات بين الأمم ؟

محمد فريد وجدى

باب الأسئلة والفتاوى

الضمان في المعاملة الربوية :

هل يجوز شرعا أن يضمن الانسان صديقا له عند أحد البنوك ؟

الجواب :

إذا كان هذا السلف بفائدة فهو معاملة ربا، وقد حرم الربا على آخذه، ومعطيه، وكاتبه، وشاهده، كما أشار الى ذلك الحديث الشريف؛ فأولى أن يحرم على الضامن لأنه شريك في التعاقد .

الصلاة في مسجد بناه مسيحي – بيع السمك في البحر :

(١) هل تجوز صلاة الجمعة في مسجد بناه مسيحي ؟

(٢) هل يجوز بيع السمك في البحر وهو مجهول ؟

الجواب :

(١) مذهب الحنابلة والشافعية والحنفية لا يرى مانعا من صلاة الجمعة وغيرها من سائر الصلوات في المسجد الذي يبنيه مسيحي .

(٢) لا يجوز في المذاهب الأربعة بيع السمك في البحر وهو مجهول .

رضا الاب بتعميد ابنه :

مسلم تزوج مسيحية وقد سمح بتعميد ابنه منها، وتم بحضوره هذا التعميد، ثم هو يربيه تربية مسيحية، هل هذا الأب يظل مع هذا العمل مسلما ؟

الجواب :

التعميد والتنصير منافيان للاسلام، فرضاء الأب بذلك يعد خروجا عن الاسلام، ويكون الأب بعمله هذا كافرا غير مسلم .

صداق المتوفى عنها زوجها قبل الدخول بها، وميراثها :

توفى رجل صبيحة عقده على زوجة ولم يدخل بها ، فماذا تستحق من الصداق والميراث ؟

الجواب :

تستحق هذه الزوجة جميع صداقها المعجل والمؤجل ، ولها نصيبها المقدر شرعا فى تركة الميت : الربع إن لم يكن للزوج ولد ، والثمن إن كان له ولد .

اليانصيب :

هل اليانصيب حلال شرعا ؟

الجواب :

ليست عملية اليانصيب مشروعة فى الاسلام ، والربح منها سحت ، لأنه من الميسر المحرم شرعا .

فى الرضاع :

أختان من الرضاعة ، هل يصح الجمع بينهما فى عصمة واحدة ؟

الجواب :

الجمع بين الأختين من الرضاع فى عصمة واحدة محرم ، كالجمع بين الأختين من النسب .

فى الميراث :

(١) توفيت امرأة وتركت ابنا وثلاث بنات هن أخوات هذا الابن منها فقط ، فما نصيب كل شخص ؟

(٢) وهل يحسب من التركة صداقها وثمنها وما ورثته من غيرها ؟

الجواب :

(١) تقسم التركة على الأشخاص الأربعة للذكر مثل حظ الأنثيين .

(٢) وتركة هـذه المرأة هى كل ما تركته من صداقها ، وجميع ما ورثته من غيرها ، وما آل اليها حال حياتها .

فى الميراث :

توفى رجل عن : زوجة وثلاث بنات وأخ وأخت شقيقين ، فما نصيب كل ؟

الجواب :

جميع من ذكر فى السؤال يرث ، أما نصيب كل منهم من التركة فكما يأتى :

للزوجة الثمن ، وللثلاث البنات الثلثان ، يقسم بينهن على سـواء ، والباقى للأخ والأخت الشقيقين ، على أن للأخ ثلثى هذا الباقى ، وللأخت ثلثه .

تعليم طرق الوقاية فى المساجد :

هل يجوز إلقاء دروس طرق الوقاية من الغازات السامة فى المساجد ؟

الجواب :

الوقاية من التهلكة مقصد سام من المقاصد التى أحاطها الاسلام المنزلة الجديرة بها من الرعاية ، وهو أصل بنيت عليه أحكام كثيرة فى الدين ، وتعليم الناس طرق الوقاية سبب من أسبابها ، فلا بأس به مع المحافظة على ألا يشوش على المصلين .

فى الطلاق :

ملخص السؤال : طلاق ثلاثا معلق على شئ حصل . طلاق بلفظ (خالصة) معلق على شيء حصل . طلاق بالثلاث معلق على أن تكون خالصة إذا فعلت شيئا معينا .

الجواب :

حيث إن مذهب المستفتى مذهب الامام مالك رضى الله عنه ، فنفيده أن مذهبه يرى وقوع الطلاق ثلاثا بمجرد حصول المحلوف عليه أول مرة ، وعلى ذلك تعتبر زوجته من ذلك التاريخ أجنبية بالنسبة له ، ولا تحل له حتى تنكح زوجا غيره نكاحا صحيحا مستوفيا شروط الحل للأول .

أما المذهب الذى جرت عليه المحاكم الشرعية المصرية أخيرا ، فيتلخص فى أن اليمين المعلقة إذا كان القصد بها الحث على فعل أو المنع منه ثم حصل المعلق عليه ، فانه لا يلزم بها شيء ، وأيمان المستفتى كلها من هذا القبيل . وعلى ذلك فلا يلزمه شيء ، وزوجته لا تزال له لم تخرج عن عصمته ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن العباس

تحدثنا فى مقالاتنا السابقة عن حياة عبقريين من أساتيذ مدرسة الاسلام الأولى الذين تخرجوا فى مدارج الوحى ، فكانوا آية من آيات النبوة الخاتمة ، وشرعة من شرائع الهداية السامية ، ومعجزة من معجزات معلم الانسانية ورسولها الأعظم ، تحمل فى مطاويها التحدى بها لفلاسفة العالم وحكمائه وعلمائه وساسته ، وقادة الفكر فى شرقه وغربه ، أن يأتوا بمثلها تكييفا لروح الايمان بالعقيدة حتى تكون صبغة الجيل وأمل الحياة فى زمنها عن طريق الفطرة الصادقة والعقل المستقيم ، ذانك هما : عمر بن الخطاب فاروق الاسلام ، وعلى بن أبى طالب بطل الاسلام .

والآن نحاول أن نجلو صورة جديدة لشخصية من طرز جديد فى أساتيذ تلك المدرسة المحمدية الخالدة ، هذه الشخصية عبّت من بحر العبقرية الاسلامية ، وعلى أساتذتها من رعيل الأنصار الأبرار وسادة المهاجرين الأولين تخرجت ، ومن منبع النبوة وفيض الوحى استقت ، ولكنها أخذت من الحياة بجانب العقل والفكر ، فانصرفت الى العلم ترويه وتحفظه ، وتبثه وتنشره ، جائلة فى كنوز الاسلام وشرائعه ، وآدابه وتعاليمه ، غائصة فى بحاره لالتقاط درره ، ذلكم هو عبد الله بن العباس ، حبر الأمة ، وعلَم الاسلام ، وعيلم العلماء ، وترجمان القرآن ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يحدثنا التاريخ أن عبد الله بن العباس رحمه الله وُلد وبنو هاشم محاصرون فى شعب أبى طالب ، أيام المحنة العظمى للدعوة الاسلامية ، بما تضافر عليها من اجتماع أنصار الباطل وحلفاء الوثنية ، حتى كانوا إلْباً على رسول الله وقومه ، لا يبايعونهم ، ولا يناكحونهم ؛ وكانت هذه الحادثة أشد مالقى الهاشميون من أذى قريش فى سبيل ذيادهم عن النبى صلى الله عليه وسلم عصبية له ، وكانت أيضا أول بدء للنضال القوى الصارم فى سبيل توطيد أركان الايمان بالعقيدة العتيدة ، ومناهضة موروثات الوثنية البالية عن طريق إيقاظ العقل وتخليصه من ربقة الأسر فى أغلال التقليد البليد ، فانها كشفت عن روح التحكم الاستبدادى والعسف الآثم فى مسلك قريش مع إخوتها وأبناء عمومتها ، حتى نهض بعض الأباة من أضراب هشام بن عمرو وزمعة بن الأسود وزهير بن أبى أمية وأبى البخترى بن هشام والمطعم بن عدى ، ينكرون

على قريش شنعتها ، ويأبون إلا أن يعيش الهاشميون مع الناس يأخذون ويعطون ، ويحيون حياتهم الأولى فى غير حرج ولا إعنات ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون الى طبيعة الحياة حتى نكبوا بموت زعيمهم شيخ قريش ونبيلها أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، والقائم دونه يحميه ويذود عن دعوته ، فكانت وفاته من أشد ما آلم نفس النبى صلى الله عليه وسلم خاصة ، ونفوس الهاشميين عامة ، لمكانة أبى طالب فيهم وفى عامة العرب .

كان طبيعيا بعد موت أبى طالب وانحياز أبى لهب الى جانب قريش ، أن يقوم العباس ابن عبد المطلب مقام أخيه أبى طالب فى زعامة الهاشميين ، وكان مظهر الزعامة وقتئذ الوقوف فى وجه قريش دفاعا عن محمد بن عبد الله ودعوته ، فعضد العباس الدعوة المحمدية كما كان يعضدها أبو طالب . وكتبُ السيرة مجمعة على رواية حضوره بيعة العقبة العظمى مع النبى صلى الله عليه وسلم مستوثقا له من اليثربيين ؛ وكان العباس أول متكلم فقال : « يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وقد أبى إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه اليكم فمن الآن فدعوه » . وتمت البيعة بمحضر من العباس ، وفتح بها باب الهجرة الذى نفذ منه المسلمون الى جهاد عدوهم ونشر دعوتهم ؛ وعبد الله بن العباس لمـّا يشبّ عن الطوق ، ولكنه يرى ويسمع ، والحوادث تتوالى فى شدة وسرعة ، والآيات تترى ، والوحى يتتابع ، وشوكة الاسلام تقوى ، وكلمته تعلو ، وساعده يشتد ، وأنصاره يكثرون ، ومكة العصية تفتح ، وقريش الجامحة تؤمن ، وسادتها تطيع وتسلم ، والعباس يؤمن ويهاجر ، والحجاج العقلى يتعاظم ، والعرب قاصيها ودانيها تقبل فى وفود رءوسها مسلمة لله مبايعة لرسوله عليه السلام .

هذه هى العناصر الحيوية ، والمقومات الطبيعية ، والمبادئ الاجتماعية ، التى كونت حياة عبد الله بن العباس حبر الأمة وبحرها ، وقد كان لكل ناحية منها أثرها فى حياته ، ولكن حرصه على العلم كان أربى وأسمى نواحيه ؛ يحدث عن نفسه فيقول فيما يرويه عنه مولاه عكرمة : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم اليوم كثير ، قال : واعجبا لك ! أترى الناس يفتقرون اليك ؟ ! فترك ذلك ، وأقبلت أسأل ، فان كان ليبلغنى الحديث عن رجل فآتى بابه وهو قائل ، ولو شئت أن يؤذن لى لأذن ، لكن أبتغى بذلك طيب نفسه ، فأتوسد ردائى على بابه يسفى علىّ الريح من التراب ، فيخرج فيرانى ، فيقول : يا ابن عم رسول الله ماجاء بك ؟ هلا أرسلت الىّ فآتيك ؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث ، فعاش الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد

اجتمع الناس حولى يسألونى ، فقال : هذا الفتى كان أعقل منى » . وفى هذا الحديث من ضروب التربية التعليمية وأدب التهذيب ما يرفعه الى أن يـكون دستورا لحياة طالب العلم الذى رزق همة نبيلة ، ففيه تصوير لمقدار الحرص على التعلم ، وفيه تصوير لأدب تلقى العلم ، وفيـه تصوير لما يحتاج اليه طالب العلم من الصبر على لأواء الحياة ، وفيـه تصوير لقيمة الاعتداد بالنفس ومضاء العزيمة ، فان ابن عباس لم يكن حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاوز ثلاث عشرة سنة من عمره ، فيما يجزم به الواقدى ، ومع ذلك فقد أبت همته أن يستصغر نفسه ، فدأب يسأل ويتعلم حتى بلغ هذا المبلغ الذى لقب من أجله بالبحر ، فيما يقوله مجاهد ، ويرويه البخارى عن جابر بن زيد « سألت البحر عن لحوم الحمر — وكان ابن عباس يسمى البحر » .

وقد حقق الله بمـا آتاه من العلم والحـكمة دعوة النبى صلى الله عليه وسلم له ، فقد روى عنه أنه قال : صليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بيدى حتى جعلنى حذاءه ، فلما أقبل على صـلاته حبست ، فلما انصرف قال : ما شأنك ؟ فقلت : يارسـول الله أو ينبغى لأحد أن يصلى حـذاءك وأنت رسول الله ؟ فدعا لى أن يزيدنى الله فهما وعلما . وروى أنه بات عند خالته ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فقام النبى صلى الله عليه وسـلم الى الخلاء فسكب له وضوءاً ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من وضع هذا ؟ فقالت السيدة ميمونة : ابن عباس ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » . وكان عبد الله بن عمر يقول له : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاك فمسح رأسك وتفل فى فيك وقال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

وقد عرف له أجلاء الصحابة وعلماؤهم هذا الفضل ، فـكان عمر بن الخطاب يحبه ويقدمه على الأكابر من المهاجرين ، فقالوا له : ألا تدعـونا كما تدعو ابن عباس ؟ فقـال عمر : ذا كم فتى الـكهول ، له لسان سؤول ، وقلب عقـول . ويقول عبد الله بن عتبة : كان عمر يأخذ بقول ابن عباس فى المعضل ، وعمر عمرا ! ! ويخبرنا ابن عباس عن بعض شأن عمر معه فيقول : قدم على عمر رجل فسأله عن الناس ، فقال : قرأ منهم القرآن كذا وكذا ، فقال ابن عباس : ما أحب أن يسأل عن آى القرآن ، قال : فزبرنى عمر ، فانطلقت الى منزلى ، فقلت : ما أرانى إلا قد سقطت من نفسه ، فبينما أنا كذلك إذ جاءنى رجل فقال : أجب ، فأخذ بيدى ثم خلابى ، فقال : ما كرهت مما قال الرجـل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فاستغفر الله ! قال : لتحدثنى ، قلت : إنهم متى تنازعوا اختلفوا ، ومتى اختلفوا ضـلوا . قال : لله أبوك لقد كنت أكتمها الناس !

وكان على كرم الله وجهه يقول فيه : إنه لغوّاص . وينبئنا ابن عبد ربه فى كتاب العقد أن ابن عباس قال لعلى يوم التحكيم : اجعلنى أحد الحـكمين ، فوالله لأفتلن لك حبلا لاينقطع وسطه

ولا ينتشر طرفاه ! فقال له على : لست من كيدك ولا من كيد معاوية فى شىء ، لا أعطيه إلا السيف حتى يغلبه الحق ، قال : وهو لا يعطيك إلا السيف حتى يغلبك الباطل ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك تطاع اليوم وتعصى غدا ، وإنه يطاع ولا يعصى ! فلما انتشر عن على أصحابه قال : لله بلاد ابن عباس ! إنه لينظر الى الغيب من ستر رقيق . وسأل رجل عبد الله بن عمر عن آية ، فقال : انطلق الى ابن عباس فاسأله فانه أعلم من بقى بما أنزل الله تعالى على محمد . وفيه يقول عبد الله بن مسعود : أما إن ابن عباس لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد ، ونعم ترجمان القرآن ابن عباس ! ولما مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة : مات حبر هذه الأمة ، ولعل الله أن يجعل من ابن عباس خلفا . وكان ابن عباس شديد الإجلال لزيد بن ثابت ، فقد روى الشعبى قال : ركب زيد ابن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه ، فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

وقد جمع ابن عباس من صنوف العلم وفنونه مالم يكن لأحد من معاصريه ، لا يستثنى غير أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، حتى إن ابن سعد فى الطبقات يروى أنهم كانوا يميلون بينهما فيقولون : « إن عبد الله بن عباس كان أعلمهما بالقرآن ، وكان على أعلمهما بالمبهمات » . وما نظن هذا إلا لأن عليا شغلته السياسة عن الكلام فى تفسير القرآن ، وابن عباس تفرغ له فأكثر ، ومهما يكن فان ابن عباس تلميذ على أخذ عنه كثيرا . والشيعة يروون أن ابن عباس سئل : أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط . ويروى عن عطاء بن أبى رباح أنه قال : ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقها ، وأعظم خشية ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم من واد واسع . وقال مسروق : كنت إذا رأيت ابن عباس قلت : أجمل الناس ، فاذا نطق قلت : أفصح الناس ، فاذا تحدث قلت : أعلم الناس . وروى أنه قرأ سورة النور وجعل يفسرها ، فقال رجل : لو سمعت هذا الديلم لأسلمت ! وكان سعيد بن جبير يقول : كنت أسمع الحديث من ابن عباس فلو يأذن لى لقبلت رأسه .

وكان ابن عباس واسع العلم بلغة العرب وآدابها ، روى أبو العباس فى الكامل عن أبى عبيدة معمر بن المثنى أن عكرمة مولى ابن عباس قال : رأيت ابن عباس وعنده نافع بن الأزرق — أحد رءوس الخوارج — وهو يسأله ويطلب منه الاحتجاج باللغة ، فسأله عن قول الله جل ثناؤه : « والليل وما وَسَقَ » فقال ابن عباس : وما جمع ، فقال نافع : أتعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباس : أما سمعت قول الراجز :

إن لنا قلائصا حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وسأله عن قوله عز وجل : « قد جعل ربك تحتك سَرِيًّا » فقال ابن عباس : هو الجدول ، وأنشده :

سَلْما ترى الدالج منــه أزورا إذا تعب فى السرى هرهرا

وسأله عن قوله تعالى : « عُتُلٍّ بعد ذلك زَنِيمٍ » ما الزنيم ؟ قال ابن عباس : هو الدعى الملزَق ، أما سمعت قول حسان بن ثابت :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

وسأله عن قوله جل اسمه : « والتفت الساقُ بالساق » فقال ابن عباس : الشدة بالشدة ، وأنشده :

أخو الحرب إن عضّت به الحرب عضها وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمرا

وسأله عن قوله عز وجل : « لهم أجر غير ممنون » فقال له ابن عباس : غير مقطوع ، فقال نافع : وهل تعرف ذلك العرب ؟ فقال : قد عرفه أخو بنى يشكر حيث يقول :

وترى خلفهن من سرعة الرَّجْـ ـع منينا كأنه أهباء

ولم يزل به يسائله حتى أملّه ، فجعـل ابن عباس يظهر الضجر . وطلع عمر بن عبد الله ابن أبى ربيعة على ابن عباس وهو يومئذ غلام ، فسلم وجلس ، فقال له ابن عباس : ألا تنشدنا شيئا من شعرك ، فأنشده قصيدته التى يقول فى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غـداة غـد أم رائح فمهجّر

بحاجـة نفس لم تقل فى جوابها فتبلغ عـذرا والمقالة تعْـذر

حتى أكملها وهى ثمانون بيتا ، فقال له ابن الأزرق : يا ابن عباس أنضرب إليك أكباد الابل نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفها فتسمعه ؟ ! فقال : تالله ما سمعت سفها ! ! فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشى فيخسر

فقال : ما هكذا قال ، إنما قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

قال نافع : أو تحفظ الذى قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتى هذه ، ولوشئت أن أردها رددتها ، قال : فإنى أشاء ، فأنشده إياها ، فقال له نافع : ما رأيت أروى منك قط ، فقال ابن عباس : ما رأيت أروى من عمر ولا أعلم من علىّ .

وذكر المبرد فى الكامل أن عليا وجّه ابن عباس الى الخوارج ليناظرهم ، فقال لهم : ما الذى نقمتم على أمير المؤمنين : قالوا : قد كان للمؤمنين أميرا فلما حكم فى دين الله خرج من الايمان

فليتب بعد إقراره بالكفر نَعُدْ له ، فقال ابن عباس : لا ينبغى لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر ، قالوا : إنه قد حكم ، قال : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم فى قتل صيد فقال عز وجل : « يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف فى إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟ فقالوا : إنه قد حُكم عليه فلم يرض ، فقال : إن الحكومة كالامامة ، ومتى فسق الامام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما ، فقالوا : إذ كان على حق لم يشكك فيه وحكم مضطرا فما باله حيث ظفر لم يَسْب ؟ فقال ابن عباس : قد سمعتم الجواب فى التحكيم ، فأما قولكم فى السباء ، أفكنتم سابين أمكم عائشة ؟ فوضعوا أصابعهم فى آذانهم وقالوا : أمسك عنا غرب لسانك يا ابن عباس فانه طُلَق ذُلَق ، غواص على موضع الحجة . وقد صدق الخوارج فى وصفهم له ، فانه أوتى من البراعة فى البيان وقوة الحجة ماسد عليهم مسالك الجدل مع قوتهم فى الاحتجاج .

روى أن الحطيئة الشاعر نظر الى ابن عباس فى مجلس عمر بن الخطاب وقد فرع بكلامه ، فقال : من هذا الذى نزل على القوم بسنه وعلاهم فى قوله ؟ قالوا : هذا ابن عباس ، فأنشأ يقول :

إنى وجدت بيان المرء نافلة يهدى له ووجدت العى كالصمم
المرء يبلى وتبقى الكلم سائرة وقد يلام الفتى يوما ولم يلم

وحدّث شاعر الاسلام حسان بن ثابت قال : كانت لنا عند عثمان حاجة فطلبناها إليه بجامعة من الصحابة منهم ابن عباس ، وكانت حاجة صعبة شديدة ، فاعتل علينا ، فراجعوه الى أن عذروه ، وقاموا إلا ابن عباس ، فلم يزل يراجعه بكلام جامع حتى سد عليه كل حاجة ، فلم ير بدا من أن يقضى حاجتنا ، فخرجنا من عنده وأنا آخذ بيد ابن عباس ، فررنا على أولئك الذين كانوا عذروا وضعفوا ، فقلت : كان عبد الله أولا كم بها ، قالوا : أجل ، فقلت أمدحه :

كفى وشفى ما فى الصدور ولم يدع لذى إربة فى القول جدا ولا هزلا
سموت الى العليا بغير شبيهة فنلت ذراها لا دَنيّا ولا وغلا

وكان ابن عباس من حلماء العرب ، فقد روى أن رجلا شتمه فقال له ابن عباس : إنك لتشتمنى وفىّ ثلاث : إنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فأحبه ولعلى لا أقاضى اليه أبدا ؛ وإنى لأسمع بالغيث يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به ومالى بها سائمة ولا راعية ؛ وإنى لآتى على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم . والحديث عنه طويل الذيول فحسبنا هذه الصورة الإجمالية عن عبقريته لنتحدث عن إخوان له جروا فى شوطه ؟

صادق ابراهيم عرجون

الكلام والمتكلمون

تعريف علم الكلام ، وموضوعه ، وغايته ، وظروف نشأته

أثبتنا فى فصول مضت أنه كان للمسلمين فلسفة قبل عصر الترجمة ، وأن هذه الفلسفة قد عالجت موضوعات هامة قبل أن يعرف العرب فلسفة الإغريق ، وذلك مثل وجود الله ووحدانيته ، وأزليته وأبديته ، وكماله وقدرته وعلمه ، واستحالة رؤيته بالحواس أو إمكان ذلك ، ومثل خلود الروح والحياة الأخرى والجزاء فيها ، وغير ذلك من المشاكل العويصة التى دوخت الفلاسفة منذ عهد المدرسة الأليائية الى ذلك الحين ، وأثبتنا أيضا أن الجدل الذى احتدم حول هذه المشاكل قد سمى فى تاريخ الفكر الاسلامى باسم « علم الكلام » . وقد رأى الأستاذان : « مانك » و « كارا دى فو » هذا الرأى ، فقررا أن العرب كان لهم فلسفة ولدت ودرجت فى حضن الاسلام تحت اسم « علم الكلام » كما سمى المشتغلون بها بالمتكلمين (١) .

فلننظر الآن ماهو حد علم الكلام ، وموضوعه ، والغاية المقصودة منه ، وما منشأ تسميته ، ومن هم وضّاعه ، وما هى التطورات التى مر بها ؟

حده صاحب « المواقف » بقوله : « والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية . والمراد بالعقائد : مايقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالدينية : المنسوبة الى دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام » . أما موضوعه عنده فهو : « المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا » (٢) .

وحده ابن خلدون بأنه : « هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » (٣)

لا ريب أن من يتأمل هذين التعريفين يبين له أن بينهما فرقا عظيما ، إذ يرى الأيجى يعرف علم الكلام بما كان يعرف به قبل تغلب المدرسة الأشعرية على خصومها : أى حين كان يشمل آراء جميع الفرق ، من : صفاتية ، وقدرية ، وجبرية ، وغير ذلك . وهو لهذا يعلق على تعريفه إياه بقوله : « فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام » . أما ابن خلدون فإنه خضع فى تعريفه للأمر الذى أصدرته الأشعرية باقصاء جميع آراء خصومها عن علم الكلام ،

(١) انظر صفحتى ٣٠٩ و ٣١٠ من كتاب « مزيج من الفلسفتين : اليهودية والعربية » للاستاذ « مانك » ، وصفحة ١٥ من كتاب « ابن سينا » للبارون كارادى‌فو . (٢) انظر صفحة ٧ من « المواقف » طبعة القاهرة .
(٣) انظر صفحة ٤٠٠ من مقدمة ابن خلدون ، طبعة القاهرة .

وباختصاصها أهل السنة وحدهم باسم المتكلمين . وهو لهذا يقول : « والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » .

أما غايته : فهى الوصول عن طريق البرهان الى دفع الشبه التى اتجهت الى العقيدة المتلقاة عن الوحى . وقد أجمل الأيجى فوائده والغاية المثلى من الاشتغال به ، فقال : « وهى أمور : الأول : الترقى من حضيض التقليد الى ذروة الإيقان . ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . الثانى : إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة . الثالث : حفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين . الرابع : أن تنبنى عليه العلوم الشرعية ، فإنه أساسها ، وإليه يؤول أخذها واقتباسها . الخامس : صحة النية والاعتقاد ، إذ بهما يرجى قبول العمل . وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين » (١)

ويرى الأيجى أيضا أنه إنما سمى علم الكلام « لأنه بإزاء المنطق للفلاسفة ، أو لأن أبوابه عنونت أولاً بالكلام فى كذا ، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه ، أو لأنه يورث قدرة على الكلام فى الشرعيات ومع الخصم » (٢)

غير أن هذا التحديد الذى وضعه الأيجى للتعريف والموضوع والغاية والتسمية ، إنما هو ناجم عن نظرته الى علم الكلام بعد عصر الترجمة ، لا فى نشأته الأولى إبان خلافة عبد الملك ابن مروان ، كما سنبينه فى موضعه . وآية ذلك أنه يقول : إما لأنه بإزاء المنطق للفلاسفة ، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك ، فغلب عليه . إذ من المعلوم أن المنطق لم يعرف عند العرب إلا فى العصر العباسى ، وكذلك التناحر والسفك لم يحدثا حول مسألة الكلام إلا بعد نشأة علم الكلام وتسميته كلاما بأكثر من ستين سنة . وإذاً ، فذكره إياهما يدل على أن نظرة المؤلف إلى علم الكلام متأخرة عن تاريخ نشأته بزمن بعيد ، وهذا يحيل أن تكون إحداهما علة فى التسمية .

وقد ذهب الأستاذ « اشمولديرس » الى « أن المتكلمين هم من اشتغلوا بكلام الإله » . وهذه عبارة متموجة يمكن أن تفهم منها مشايعة هذا المستشرق رأى الأيجى الذى ذكرناه آنفا ، وأن يفهم منها كذلك أن كلمة المتكلمين تطلق على من اشتغلوا بالقرآن شرحا وتأويلا واستنباطا . وقد فهم « البارون كارادى فو » هذا المعنى الأخير فنقده بقوله : « لو كان هذا الرأى صحيحا ، لكان المفسرون والفقهاء والنحويون والأدباء جميعا متكلمين . وهذا لم يقل به أحد من علماء المسلمين ، ولا من الباحثين المحدثين (٣) .

(١ و ٢) انظر صفحتى ٨ و ٩ من « المواقف » طبعة القاهرة . (٣) انظر صفحة ١٢ من كتاب « الغزالى » تاليف « البارون كارادى فو » .

والحق بعد كل الذى تقدم هو أن كلمة «كلام» كان معناها فى أول الأمر: كل حوار حول مسألة من المسائل، ثم تطورت فأصبح معناها النظر العقلى فى مشكلة من مشاكل الغيبيات.

أما واضعه: فيقرر المستشرقون أنه غير معروف، ويميلون الى أنه لم يوجد له واضع بعينه، وإنما تكوّن من مجموعة المحاورات الأولى التى دارت حول ما ورد فى القرآن من مشاكل فلسفية نص عليها فى آيات متشابهات، ثم من شبه نتجت بعد ذلك من الأخذ والرد اللذين اتسع مجالها على توالى الزمن، ولكنهم يرون أيضا أن كبار الفقهاء كأبى حنيفة وأبى يوسف قد ساهموا فى تأسيس علم الكلام بقسط وافر، أما الشافعى فقد هاجمه وحمل عليه فى شىء من العنف وإن كان لم يستطع أن يتخلص منه بحكم عقليته المنقفة، ومهنته كفقيه عظيم.

أما ظروف نشأته وتطوره: فهى تتلخص فى أنه لما وقعت الاضطرابات السياسية، وعظمت الفتنة بين المسلمين، جرف تيارها جميع نواحى الحياة، فجرؤ الدخلاء والمنافقون على بث شبههم بين المسلمين مستترين خلف حجب الآيات المتشابهة، محتمين بأمر القرآن الصريح فى إباحة النظر. فألجأت هذه الحركة مفكرى المسلمين الى المساهمة مع محاوريهم فى مزاولة الجدل واستخدام التأويل.

ومنذ ذلك العهد أخذ المتأدبون يجتمعون حول مشاهير الأساتذة، يتلقون عنهم المعرفة، ويحاورونهم فى البراهين والشبه، ومن هذه المحاورات تكوّن علم الكلام.

قال التفتازانى فى شرح العقائد النسفية ما نصه:

«وقد كان الاوائل من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين لصفاء عقائدهم ببركة صحبة النبى عليه السلام وقرب العهد بزمانه ولقلة الوقائع والاختلافات وتمكنهم من المراجعة الى الثقات، مستغنين عن تدوين العلمين وترتيبهما أبوابا وفصولا، وتقرير مباحثهما فروعا وأصولا، الى أن حدثت الفتن بين المسلمين، وغلب البغى على أئمة الدين، وظهر اختلاف الآراء، والميل الى البدع والأهواء، وكثرت الفتاوى والواقعات، والرجوع الى العلماء فى المهمات، فاشتغلوا بالنظر والاستدلال، والاجتهاد والاستنباط، وتمهيد القواعد والأصول، وترتيب الأبواب والفصول، وتكثير المسائل بأدلتها، وإيراد الشبه بأجوبتها، وتعيين الأوضاع والاصطلاحات، وتبيين المذاهب والاختلافات، وسموا ما يفيد معرفة الأحكام العملية عن أدلتها التفصيلية بالفقه، ومعرفة أحوال الأدلة إجمالا فى إفادتها الأحكام بأصول الفقه، ومعرفة العقائد عن أدلتها بالكلام ... ثم لما نقلت الفلسفة الى العربية وخاض فيها الاسلاميون، حاولوا الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة، فخلطوا بالكلام كثيرا من الفلسفة، ليتحققوا مقاصدها فيتمكنوا من إبطالها، وهلم جرا، الى أن درجوا فيه معظم الطبيعيات والإلهيات، وخاضوا فى الرياضيات حتى كاد لا يتميز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيات، وهذا هو كلام

المتأخرين (١) » . وقال ابن خلدون بعد أن ذكر بيانا لأمهات المعتقدات الاسلامية التى ورد بها القرآن وآمن بها الصدر الأول كما جاءت دون بحث عما عسى أن يكون فى ثناياها من شبه :

«هذه أمهات العقائد الايمانية معللة بأدلتها العقلية . وأدلتها من الـكتاب والسنة كثيرة».

عن تلك الأدلة أخذها السلف ، وأرشد اليها العلماء ، وحققها الأئمة ، إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف فى تفاصيل هذه العقائد ، أكثر مثارها من الآى المتشابهة ، فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة الى النقل ، لحدث بذلك علم الـكلام (٢) .

هذا هو مجمل الآراء فى تعريف علم الـكلام وموضوعه وغايته ، وعلة تسميته ، وظروف نشأته وتطوره . فلننظر الآن نشأة أهم مدارس المتكلمين ، وأبرز آرائها ، سالـكين فى ذلك نهج الترتيب الزمنى لنشوء تلك المدارس .

القدرية أو أهل العدل :

كانت المشكلة الأولى التى دار حولها الجدل هى مشكلة : القضاء والقدر وما نتج منها من الآراء المختلفة بإزاء الجبر والاختيار ، وتحديد ما لدى الفرد من هـذا الأخير ، وهل هو محدود منحصر فى دائرة معينة ، أو لا حد له فى جميع الأفعال التى من شأن الفرد أن يقوم بها . وأول من قال بالرأى الثانى هو معبد الجهنى ، ثم عطاء بن يسار ، وأبو مروان الدمشقى .

جاهر أولئك العلماء بحرية الفرد المطلقة ، وعززوا ما ذهبوا إليه بالأدلة العقلية ، فأعلنوا أنه لامعنى للتـكليف ولا للثواب والعقاب إلا إذا كانت الحرية مكفولة ، وإلا لـكان التـكليف عبثا أو تعجيزا ، وكان الثواب منحة من غـير استحقاق ، والعقاب ظلما على غير إثم . وقد أيدوا حججهم كذلك بطائفة من الآيات القرآنية تنص على أن الفرد مختار فيما يسلك فى حياته من سبل ، مسئول عما يبرز من أفعال ، وذلك مثل قول القرآن : « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ، « اعملوا ما شئتم » ، « بل سولت لـكم أنفسكم أمرا » ، « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « من يعمل سوءا يجز به » ، « كل امرئ بما كسب رهين » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، « ربنا ظلمنا أنفسنا » ، « إنى كنت من الظالمين » ، « رب إنى ظلمت نفسى » .

ولما كان خلفاء بنى أمية يدينون بأن كل شىء قـد أثبت فى سجل القدر قبل وقوعه ، وأن فريقى الناجين والهالـكين قد عينا فى أم الـكتاب التى لا محو فيها ولا إثبات ، وبالتالى : ليس فى وسع الفرد إلا أن يخضع لهـذا القدر المحتوم ، فقد سخطوا على القائلين بهذا الرأى

(١) انظر صفحة ٤٢ وما بعدها من شرح العقائد النسفية للتفتازانى طبعة محمود شاكر بالقاهرة .

(٢) انظر صفحة ٤٠٤ من مقدمة ابن خلدون .

وتعقبوهم . فأمر عبد الملك بتعذيب معبد ثم بقتله فى سنة ٨٠ ﻫ بحجة أن مذهبه أحدث اضطرابا فى الأمة الاسلامية . وقد تبع هذا الرأى — رغم معارضة الخلفاء إياه — عدد من خاصة المفكرين ، منهم أبو مروان الدمشقى الذى أمر هشام بن عبد الملك بصلبه على باب دمشق . أما عطاء بن يسار ، فقد فر ، وتوفى وفاة طبيعية عند نهاية القرن الأول الهجرى .

ولما كان الحديث الشريف صريحا فى أن القدرية هم خصماء الله فى القدر ، وأنهم مجوس هذه الأمة ، فقد أطلق أنصار القضاء المحتوم على أنصار حرية الفرد اسم « القدرية » ليكونوا هم المقصودين بالحديث ، لأنهم خاصموا الله فى قدره ، وأسندوا الى أنفسهم القدرة على الاستقلال بالأفعال . غير أن هؤلاء الخصوم لم يرتضوا لأنفسهم هذه التسمية ، وأعلنوا أن القائلين بالقدر : خيره وشره هم أولى منهم بهذه التسمية . وبالتالى : هم أولى بأن يكونوا مجوس هذه الأمة . أما هم فجديرون بأن يطلق عليهم اسم : « أصحاب العدل » لأنهم وحدهم أنصاره الحقيقيون ، إذ أن العدل الحقيقى لا يكون إلا حيث تتحقق الحرية الكاملة فى الأفعال ، وإلا فهل من العدالة أن تعاقب فردا على ما أجبرته على فعله ؟

« يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الشهرة ومبغضوها

الشهرة وبعد الصيت أحب الأشياء الى قلوب الناس وقد يؤثرونها على الثروة ، وقد رأينا من أنفق ماله كله وأصبح معدما فى سبيلها ، ولكن من الناس من تغلّب عليهم همّ أعلى وأرفع من هم أنفسهم ، فكانوا يهربون منها هربهم من البوائق الجائحة خشية أن يصرفهم العرض الزائل عن الجوهر الخالد . وهذا من غريب أمر الأفذاذ ، وهو يدل على عراقة النفس البشرية فى السمو ، وإنما تحجبها عنهم الشهوات الجسدية ، والأهواء الوقتية .

قال خالد بن صفوان : كان الأحنف يفر من الشرف والشرف يتبعه . والأحنف هو ابن قيس سيد بنى حنيفة ومن أخص أنصار على رضى الله عنه ، الذى قيل فيه : إذا غضب الأحنف غضب لغضبه مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب .

وقال الحسن البصرى : لقد صحبت أقواما إن الرجل لتعرض له الكلمة من الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه فما يمنعه إلا مخافة الشهرة .

وقال ابن سيرين : لم يمنعنى من مجالستكم إلا مخافة الشهرة ، فلم يزل بى البلاء حتى أخذ بلحيتى فأقمت على المصطبة ، فقيل : هذا ابن سيرين .

وقال الفضيل بن عياض : كان أحدهم إذا جلس اليه أربعة أو أكثر ، قام مخافة الشهرة .

في عالم الأدب العربي

نظرات فى الادب العربى

جاهليته وإسلاميته

كان يقعد بى عن الاندماج فى الحياة الأدبيـة العامة ، والانضواء تحت لوائها ، والسير فى ركابها ، والخضوع لناموسها العام ، بمواصلة الكتابة ، وموافاة الصحف والمجلات ، بالمساجلات والبحوث ، والآراء فى الشعر والأدب ، وما الى ذلك ؛ وبالحرص على الاتصال بالأدباء ، وشهود مجتمعاتهم ، وعمارة منتدياتهم — أقول : كان يقعد بى عن هذا المذهب ، أو بعبارة أدق ، عن معالجة ما لاينبو بى موضعى عن معالجته منها ، أننى امتهنت التدريس من عهد مبكر ؛ وفيما جرى من نفسى مجرى النفس ، من آداب أساتذتى الجلة — أحسن الله اليهم أحياء وأمواتا — أن الكرامة الشخصية رأس مال المدرس ، وسر الانتفاع بعلمه وبخلقه ؛ ولا ريب أن فى معالجته لما يخرج عن واجبه الدراسى ، إشراكا ، يضعف مُنّته فى الداخل وفى الخارج ، ويعرضه للخطأ ، وشذوذ الرأى ، ثم للتخطئة والنقاش والجدل ، الذى لاسبيل الى تحريره مما يتجافى به عن مناهج أدب الخطاب ؛ على حين أنه لم يعتد فى درسه إلا نفوذ الكلمة وقوة السلطان ، وفلج الحجة ، بتوفره على عمله ، والانقطاع له ، والإخلاص فى الحرص على عرضه فى أقرب الصور الى الكمال .

فلما تقدمت بنا السن ، واتصلت حجر دراستنا بشوارع الحياة العامة ، فسلكها بعض طلبتنا ، ووقف على أبوابها آخرون ، ومن دونهم طبقات أخر من الشادين ، كان يعزينا الاتصال غير المباشر بوساطة أبنائنا ، عن الاتصال المباشر بأنفسنا ؛ على أنه — مع ذلك — كان لنا فضل المرشد الناصح الأمين ، الذى يضع الهناء موضع النقب ، ويرى من صميم واجبه أن يوجه أبناءه الى أفضل مناهج الحياة وغاياتها ، كما يوجههم — على قدر جهده — الى أنفع مناهج التعليم وغاياتها . ولعل أغنى أيامى بالسعادة ، ذلك اليوم الذى أقرأ فيه لأحد أبنائى بحثا علميا أو أدبيا ، أو قصيدة شعرية ، فى صحيفة راقية ، أو مجلة محترمة ، أو أطالع له مؤلفا مفيدا مطبوعا ، أو ديوانا من الشعر . وكم لى فى التشجيع والحث على الإقدام والشجاعة وتطلب الإجادة بشتى وسائلها فى هذا السبيل ، من مواقف كان لها شىء من القوة والأثر المحمود :

فكأنى وما أزيّن منها قَعَدِي يزيّن التحكيما
كَلّ عن حمله السلاح الى الحر ب ، فأوصى المطيق ألاّ يقيما

***

بيد أن الزمان قد تقدم تقدما يشبه الثورة الجامحة ، وطغت موجة النشاط الجسمى والعقلى طغيانا اجترف أو كاد كل واقف على الحياد ، بفضل ما نضحت به السرعة وقوة المواصلات ، من احتكاك الأفكار ، وانتشار المعرفة ، وتقدم العلم والفن ، حتى أصبح التخاف عن مجاراة الحياة الحاضرة خورا فى الطبيعة ، وشذوذا فى الفطرة ، ودليلا على عدم الصلاحية للحياة .

لذلك ، ولوجوه من الآراء والمذاهب الأدبية يعالجها الصفّ الآخر من صفّى الحياة العلمية فى هذا البلد ، أكتب فى هذا الموضوع ، شارحاً وجهة النظر الأزهرى فى الأدب ، ومدافعا عنها ، ومبينا ما يقبل عندنا — معشر الأزهريين — وما لا يقبل ، من روائع النقد الحديث ؛ وسأوالى البحث ، وأتابع الحديث ، إن شاء الله .

١ — الأدب الجاهلى :

جدّ فى الأدب ، فى القرن الحاضر ، بحوث ومذاهب ، منها الإجمالى العام ، ومنها التفصيلى الخاص ؛ ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا : إن النقد التفصيلى الخاص فى هذا العصر ، كان فتحا جديدا ، جنى الأدب من غزواته طرائف ، فيها جدة ، وفيها جمال ، وفيها حياة ، وقد صادف التوفيق كثيرا منها ؛ وما لم يوفق منها الى تمام الغرض ، لم يخطئه التوفيق فى الطريق . على أنى لست بسبيل أن أتكلم على النقد الخاص الآن ، فقد جعلت منزلته بعد الحديث عن النقد العام جملة .

أهم ما جدّ فى النقد العام للأدب الجاهلى فى القرن الحاضر رأيان ، أحدهما : أن الأدب الجاهلى أكثره مشكوك فيه ؛ والثانى : أن الأدب الجاهلى جنى على ما جاء بعده من أدب العصور الاسلامية الى اليوم . وكلا الرأيين جدير بالعناية ، جدير بالدرس ، جدير ببيان ما فيه من صواب ، وما خالطه مما يجافى الصواب ، إذ الرأيان كلاهما ، صدرا عن دراسة طويلة ، وعن بحث عميق ، واستندا الى دلائل وشواهد ، لا مناص من مناقشتها ، ومعرفة مبلغ ما تحمل من قوة وصحة ، قبل الحكم بسداد الرأى أو فساده ، نزولا على طبيعة البحث ، وعلى حكم النظر .

ومنشأ الرأى الأول : أن العرب — كما هو معروف — ينقسمون الى قسمين : قحطانيين ، ومنازلهم اليمن ؛ وعدنانيين ، وهؤلاء : ربعيون ومضريون ، ومنازلهم شمال الجزيرة العربية . فأما شعر اليمنيين ، فهو موضوع منحول فى الاسلام لليمنيين لأغراض دينية أو سياسية أو عصبية أو أدبية أو اجتماعية ، لأن أشعار اليمن قد رويت بلغة قريش ، مع أن لليمن لغة

تخالف لغة الشمال ؛ قال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا . وأثبت البحث الحديث اختلاف اللغتين إثباتا لا يحتمل الشك . فنحن بين أمرين : إما أن نبطل هذا التقسيم الوطنى والقبلى بين العدنانيين والقحطانيين ، وإما أن نرفض نسبة ما روى من شعر اليمن الى اليمنيين . والرأى الأخير أرجح ، لأسباب فصّلها صاحب هذا الرأى تفصيلا لا يغنى الإجمال عن الرجوع إليه ، منها أن الحال السياسية والاجتماعية ، كانت تقتضى غلبة الحميرية اليمنية على العدنانية ، لا العكس ؛ ومنها أن بين بعض شعراء اليمن وشعراء ربيعة ، رحماً واشجة ، ونسبا قريبا ، كامرئ القيس ومهلهل ، ومع ذلك لم نجد فى شعر أولها أقل تعرض لمقتضيات هذه القرابة . . . الى غير ذلك .

أما شعر ربيعة من العدنانيين ، فمشكوك فيه ، لأسباب ، منها اختلاف اللغتين : الربعية ، والقرشية ، اختلافا أيسر من الاختلاف بين هذه وبين الحميرية ، وقد رويت أشعار الربعيين فى بيان قرشى مبين ؛ ومنها ذلك الضعف الذى يلمس لمسا فى أكثر ما روى للربعيين من الأشعار ؛ ومنها غير ذلك .

بقى شعر مضر ، وهو مقبول فى الجملة قطعا ، بيد أن الرواة لم يعفوه من التزّيد والحمل ، فقد نحلوا شعراء مضر كثيرا من الشعر الذى لم يقولوه ، ولم تنضح به قرائحهم ؛ وأقوى الأسباب التى تجعل الشعر المضرى مقبولا ، أن كثيرا من الشعراء المضريين أدركوا الاسلام ، واستمرت سلسلة مدرسة أوس بن حجر أستاذ شعراء مضر حتى كثيّر وجميل من شعراء الدولة الأموية ؛ وأن للشعر المضرى خصائص فنية يدركها الناقد الأديب واضحة جلية فى كل ما أثر من الشعر الصحيح عن المضريين ؛ فما لم تظهر فيه مما نسب إليهم ، فهو مظلم النسبة ، منحول مدخول .

***

والناقد الأديب المبرأ من الغرض ، لا يرى فى هذا المذهب شيئا يزيد على ما روى عن قدامى النقاد من العرب ، إلا فرق ما بين الإجمال والتفصيل ، فكبار النقاد مجمعون على أن زعيم الكوفة فى الرواية والحفظ هو حماد الراوية ، وأن زعيم البصرة فى الرواية والحفظ خلف الأحمر ؛ وأهل الكوفة والبصرة مجمعون على تجريح الرجلين فى دينهما وخلقهما ومروءتهما ، ومجمعون على أنهما لم يكونا يحفظان الشعر ، ويحسنان روايته ليس غير ، وإنما كانا شاعرين مجيدين ، يصلان من التقليد والمهارة فيه الى حيث لا يستطيع أحد أن يميز بين ما يرويان وما ينتحلان . فأما حماد فيقول عنه المفضل الضبى : إنه قد أفسد الشعر إفسادا لا يصلح بعده أبدا ؛ فلما سئل عن سبب ذلك : ألحن أم خطأ ؟ قال : ليته كان كذلك ! فان أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويحمل عنه ذلك فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها ، إلا عند عالم ناقد ؛ وأين ذلك ؟ .

ويروى ابن سلام : أن حمادا دخل على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعرى ، فقال له بلال : ما أطرفتنى شيئا ؛ فغدا عليه حماد ، فأنشده قصيدة للحطيئة فى مدح أبى موسى عدة أبياتها أربعة عشر بيتا ، يقول فى مطلعها :

هل تعرف الدار مذ عامين أو عام دار لهند بجزع الخرج فالدام

قال بلال : ويحك ! يمدح الحطيئة أبا موسى ، ولا أعرف ذلك ، وأنا أروى شعر الحطيئة ؟ ! ولكن دعها تذهب فى الناس .

وقد تركها حماد فذهبت فى الناس ، وهى فى ديوان الحطيئة . قال العلامة الرافعى رحمه الله : والبصير بالشعر ومذاهبه ، إذا قرأ شعر الحطيئة ، أخرج هذه القصيدة منه ، لأنها تقليد ومقاربة ، وإن كان المدائنى قد صحح أنها للحطيئة فى أبى موسى ، ونفى أن يكون حماد نحلها الحطيئة تقربا الى بلال ، فان نَفَس الشاعر أصدق فى نسبة كلامه من ألسنة الرواة .

وأما خلف الأحمر ، فيقول ابن سلام : إنه كان أفرس الناس ببيت شعر . ويقال إنه وضع لأهل الكوفة ما شاء الله أن يضع ، ثم نسك فى آخر أيامه ، فأنبأ أهل الكوفة بما كان قد وضع لهم من الشعر ، فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة ! فبقيت أشعاره على حالها . ويقال إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ، ولامية الحماسة التى مطلعها :

إنّ بالشِّعب الى جنب سَلْعٍ لقتيلا دمه ما يطلّ

على ابن أخت تأبط شرا فى رثاء خاله . قالوا : ومن علائم وضعها هذه الدقة التى لم تكن من خصائص العصر بعد ، فى قوله منها :

حادث ّما نابنى مُصْمَئِلٌّ جلّ حتى دقّ فيه الأجلُّ

وقال الأصمعى : سمعت خلفا يقول : أنا وضعت على النابغة القصيدة التى يقول فيها :

خيل صيام ، وخيل غير صائمة تحت العجاج ، وأخرى تعلك اللجما

وقد ذكر غير واحد من العلماء : أنه لما جاء الاسلام ، واندفع به العرب الى الفتوح ، اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو حينا من الزمن ، فلما راجعوا روايته بعد ذلك ، وقد أخذ منهم السيف والحيف ، وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب رواته ، صنعت القبائل الأشعار ، ونسبتها الى غير أهلها ، تتكثر بها ، وتعتاض مما فقدته . وكان فى العرب قوم آخرون قلّت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بذوى الكثرة من ذلك ، وإنما العزة للكاثر ، فقالوا على ألسن شعرائهم مالم يقولوه ، وأخذ عنهم الرواة . وأول القبائل التى وضعت الشعر فى الاسلام قريش ، وكانت أقل العرب شعرا وشعراء ؛ فانها لما تعاضهت واستبت وكذب بعضها على بعض أول العهد بالاسلام ، حين كان منها المسلمون ، ومنها

القاسطون ، ومنها دون ذلك ، وضعوا على حسان بن ثابت رضى الله عنه أشعارا كثيرة لا تليق به ولا تجوز عليه ، وما ترى العرب إلا أخذت إخذها فى ذلك من بعد .

***

إذا علمنا هذا — وهو متعالَم معروف — تحقق لدينا أن هـذا الرأى ليس جديدا فى جوهره ، ولا بدعة فى الأدب لم يسبق اليها ، وإنما الجديد فيه ، هو هذا التفصيل والإيضاح والشرح ، وضرب المثل ، مما نوّع نواحى البحث فيه ، وفتح للباحث أبوابا ، لم تـكن تخطر له قبل ذلك ببال . إن القدامى من النقاد ، أرسلوا شكهم فى الأدب الجاهلى إرسالا ، وعمّموه تعميما ، فلم يفرقوا فى هذا الشك بين شعر وشعر ، ولا بين عرب وعرب ؛ فأما صاحب هذا الرأى ، فقد تناول الموضوع ففصله تفصيلا ، وقسمه أقساما ، ثم أصدر حكمه على كل قسم ، معللا مبرهناً ، تارة بما ترتاح اليه نفس الأديب ، وأخرى بما لا يخلو من تعسف واضطراب ؛ وكلتا الحالتين مجدية على الأدب ، لا يخلو النظر فيها من جدّة ، ولا يقصّر عن نفع . ولعمرى لو صدر هـذا الرأى عن غـير من صـدر عنه ، ثم جرد من تلك الفضول التى تضر الأدب أبلغ مما تنفعه ، لقوبل فى العالم العربى بغير ما قوبل به إبان ظهوره ، ولسكنت أقلام كثيرة حركها مَبعثُه بما كان الى العلم والمنطق ، أقرب منه الى النقد الأدبى والأدب . فالثورة على الرأى ، فى حقيقة الأمر ، لم تكن لما أصاب الأدب من شك فى نسبته ، إذ هو أدب سواء أكان صحيح النسبة أم كان منحولا ، وإنما كانت ثورة على تلك الفضول التى استتبعها التوسع فى استخدام حرية الرأى — من رجل معروف بالغلو فى حرية الرأى — الى حد غير مقبول ولا مجد على أدب ، ولا على غير أدب .

***

فالأزهر يلتقى مع صاحب هذا الرأى فى الناحية الأدبية فى جملتها ، ويفيد بما تعلق به من بحوث وأطراف ، فيها لذة ، وفيها متعة ، وفيها فنون من الأدب خصيبة ؛ ليس من البر بالأدب مطاردتها وإغلاق الأبواب دونها ، وضرب الأسـداد على الطلاب حتى لا يتناولوها فيفتتنوا بما فيها من خير ، عما فى طواياها من شر ؛ فالحـكمة ضـالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ، والخير لا يصد الوجوه عنه ، مصاحبة الشر له .

ما ينفع الرجس من قرب الزكى ؟ وما على الزكى بقرب الرجس من ضرر

وها نحن أولاء نبعث البعوث الى أوربا ، لتأخذ فلسفة العلوم والفنون عن علماء الغرب ، وفيهم اللادينى ، وفيهم الملحد ، وفيهم اليهودى والنصرانى ، وغيرهم ، ولا تصرفنا عداوتهم لنا فى الدين والمعتقد ، عن مصادقتهم فى العلم والفن ووسائل ترقية الحياة .

***

بيد أننا نفترق عن صاحب هـذا الرأى ، وعن السواد الغالب من شيعته وأشباهه ، لا فى تلك الفصول التى مررنا بها مراً آنفا فحسب ، بل وفيما يحاولونه ويدأبون فى السعى إليه فى أناة وحسن تأتّ ورقة أسلوب ، وهو فصل اللغة عن الدين ، والبحث فيها مجردة عن مسْحته ، وعن ملابساته ، وعدم التقيد فى بحثها بالقيود التى تربطها به ، وتقصرها عليه ؛ وعندى أن هـذا أخطر الأمرين ، وأسوأ الناحيتين ، إذ أن الدين من اللغة ، بمنزلة الروح من الجسد ، ففصل أحدهما عن الآخر ، قضاء عليهما جميعا ؛ وليس هـذا رأينا — معشر الأزهريين — وحدنا ؛ فالمرحوم مصطفى صادق الرافعى ، وهو صاحب مذهب فى الأدب العربى معتقد ، ومكانته فى البحث والنظر لا تجحد ، يقول فى كتابه (تاريخ آداب العرب ص ١٣ ج ١) : وأنت خبير بأن الرجال فى تاريخ الآداب الأوربية ، هم قِطَعُه التى يتألف منها ، لأنهم متصرفون فى اللغة كأنها إنما توضع لمعهدهم أوضاعا جديدة . فكل رجل منهم فى طريقته ومذهبه فن علم ، أو هو على الحقيقة قطعة متميزة فى تركيب التاريخ العقلى . ولكن الرجال عندنا فى قياسهم بأولئك ينزلون منزلة التشبيهات من المعانى الأصلية ، إلا ماندر ، ولا حكم للنادر . وذلك لأن فى لغتنا معنى دينيا ، هو سرها وحقيقتها ، فلا تجد من رجل روى أو صنّف أو أملى فى فن من فنون الآداب ، أول عهدهم بذلك ، إلا خدمة للقرآن الكريم ؛ ثم استقلت الفنون بعد ذلك ، وبقى أثر هـذا المعنى فى فواتح الكتب . والقرآنُ نفسه حادثة أدبية ، من المعجزات الحقيقية التى لا شبهة فيها ، وإن لم يفهم سر ذلك « من لا يفهمونه » اهـ : هكذا وضع — رحمة الله عليه — من لا يفهمونه ، بين قوسين ، يريد بذلك أن ينبه من لا يفهم ، الى أنه يقصد الى قوم معينين ، تبين جنوحهم الى هذا الرأى ، وعملهم على تطبيقه ، والسعى فى سبيله . وما كان الرأى الذى أسلفنا الحديث عنه فى هذا البحث إلا طليعة ومقدمة لتطبيق هذا المذهب الذى لم يُمته قيام الثورة فى وجهه ، بل ها هوذا :

يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرف يسلّ ويغمد

فتراه اليوم فى متجهات النقد الحديث ، ونظم التعليم ، كما رأيته أمس فى الأدب الجاهلى .

وعلى الجملة ، فصميم الفرق بين مذهب الأزهر فى اللغة والأدب ، وبين مذهب الجامعة فيهما ، أن الأزهر يخدم بدراستهما الكتاب والسنة ، وهما أصل الدين الذى يأخذ نفسه بحياطته والقيام عليه ، وأن الجامعة تدرسهما على أنهما من خصائص الشرق ، وأدوات تاريخه ، ومقومات حياته .

وفيما يلى من فصول هذه النظرات ، مزيد إيضاح لمظاهر هذا الاختلاف ؛ فإلى اللقاء ؟

عبد الجواد رمضان
كلية اللغة العربية

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

عرضنا فى بحوث سابقة لنظام الوقف وآثاره . والوقف لغة : الحبس والمنع ، وهو مصدر وقف ، تقول : وقفت الدابة إذا منعتها من السير فوقفت ، ووقفت الدار إذا حبستها ، ولا تقول : أوقفتها فانها لغة رديئة . وقد اشتهر إطلاق المصدر بمعنى اسم المفعول ، فيقال : هذا البيت وقف أى موقوف ، ومن ثم جمع على أوقاف .

يبقى بعد ذلك أن أئمة الفقه الاسلامى رضوان الله عليهم اختلفوا فى معنى الوقف شرعاً ، فيذهب أبو حنيفة رضى الله عنه الى أن الوقف هو حبس العين على ملك الواقف مع التصدق بمنفعتها ، أو صرف منفعتها الى من أحب . فالنوع الأول كما لو وقف الواقف عينا من أول أمره على جهة بر لا تنقطع كالفقراء والمساجد والمدارس والمستشفيات والحصون والمقابر والسقايات والقناطر والملاجئ والتكايا ونحو ذلك . والنوع الثانى كما لو وقف على جماعة من الأغنياء عينا ومن بعدهم على جهة بر لا تنقطع . وفى هذه الحالة يعتبر الامام النوع الثانى وقفا قبل انقراض الموقوف عليهم ولا يعتبره صدقة . ومذهبه مبنى على أنه رضى الله عنه لا يقول بلزوم الوقف ، فهو يرى كما يفهم من تفاصيل مذهبه أن العين الموقوفة تجرى عليها أحكام الملكية بعد موت الواقف ، فتورث وتوهب ، وتعرض لها صفات الملكية كما لو لم تكن موقوفة .

ويذهب الصاحبان : أبو يوسف ، ومحمد رضى الله عنهما ، الى أن معنى الوقف هو حبس العين عن أن تملك لأحد من العباد ، فيما يروى العلامة ابن عابدين ، والتصدق بمنفعتها ابتداء وانتهاء ، أو انتهاء فقط . فالحالة الأولى كما لو وقف من أول الأمر على جهة بر لا تنقطع ؛ ويسمى الوقف حينئذ وقفا خيريا . والحالة الثانية كما لو وقف على من يحتمل الانقطاع واحدا كان أو أكثر مما لا يعتبر الصرف اليه صدقة ثم جعلها من بعدهم لجهة بر لا تنقطع ، كما إذا وقف على نفسه وذريته ومن بعدهم للمساكين ، ويسمى الوقف حينئذ وقفا أهليا ، فاذا آل الى جهة بر دائمة صار خيريا . وتلك التسمية الثانية تسمية عصرية ، وإن كانت فى مدلولها متمشية مع كل عصر وجيل . وعلى مذهب الصاحبين يكون الوقف لازما ، فلا يوهب ولا يورث ولا يوصى به لأنه لا يملك لأحد من العباد .

ومما لا مراء فيه أن الوقف بنوعيه الخيرى والأهلى عمل من أعمال البر والخير ، ووسيلة من وسائل القربى الى الله ، وهو فيما وراء ذلك نظام صالح يسيغه العقل وتدعو إليه نواميس المجتمع ، وهو مع ذلك لا يعدو أن يكون نظاما لتوثيق ما بين الأغنياء والفقراء من صلات

تقوم على التعاون بينهما ، فالأغنياء يبذلون نوالهم ، والفقراء يكفون عن الحقد عليهم والتبرم بما فيما أيديهم .

وهو فوق ذلك نظام أرشد إليه الكتاب والسنة ، وتواصت به أمم مسيحية مع اختلاف فى الأوضاع والأساليب والمقاصد ، فيندرج فى كثير من الآيات التى حثت على فعل الخير والتزود به للآخرة ، مثل قوله تعالى : « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » ، وقوله : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقوله : « وابتغوا إليه الوسيلة » ، وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ، وقوله : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموتُ فيقولَ رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصّدّقَ وأكنْ من الصالحين » .

وقد دلت على مشروعيته أيضا الأحاديث الكثيرة والآثار المتضافرة ، واستمرار عمل الأمة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومنا هذا على الأخذ بالوقف من غير نكير . وهذا إجماع عملى على مشروعيته ، وهو حجة . قال زيد بن ثابت رضى الله عنه : لم نر خيرا للميت ولا للحى من هذه الحبوس الموقوفة . أما الميت فيجرى أجرها عليه ، وأما الحى فتحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يقدر على استهلاكها .

فنظام الوقف بنوعيه فى الشريعة الاسلامية أوفى غرضا للمجتمع ، وأعم فائدة لمصلحة الجماعة والفرد . وما يعرض له من المساوئ فى تصرف النظار مما يطرح كل يوم فى ساحة القضاء لا يغض من قيمته ولا يؤثر فى مشروعيته . فاذا أحكمت طريقة مراقبة النظار والأخذ على أيدى العابثين منهم ، أنتج نظام الوقف لنوع من بنى الانسان أفضل وجوه المعونة ، وأكفل طرائق العطف والمثوبة ؟

عباس طه

الى حضرات القارئين

لم نستطع فى هذا العدد أن ننشر كل ما لدينا من مقالات حضرات العلماء والكتاب التى تراكمت لدينا فى الشهرين اللذين لا تصدر فيهما المجلة ، وهما ذو القعدة وذو الحجة ، فنعتذر الى حضراتهم راجين أن نوفق الى نشرها تباعا .

وكذلك نعتذر لحضرات المؤلفين الذين رغبوا إلينا فى نقد مؤلفاتهم ، فقد ضاق هذا العدد عن نشر شيء من ذلك ، آملين أن نوفيها حقها فى الأعداد المقبلة ، إن شاء الله ؟

تفسير سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر
الدرس الثانى الذى ألقاه فضيلته فى رمضان سنة ١٣٥٨
بمسجد السيدة نفيسة بالقاهرة
وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) :

الطائفة من الناس : جماعة منهم ، ومن الشيء : قطعة منه ، وهى جمع طائف ، وقد يكنى بالجمع عن الواحد ، فيراد بها الواحد .

والبغى : طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى فيه ، سواء تجاوزه أم لم يتجاوزه . وهو قسمان : محمود ، ومذموم . فالأول: تجاوز العدل الى الإحسان ، والثانى : تجاوز الحق الى الباطل ، أو تجاوز الحق الى الشُّبَه ، وقد قال عليه السلام : « الحق (١) بيّن والباطل بيّن ، وبين ذلك مشتبهات ، ومن رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه » . وقولُ الله سبحانه : « إِنَّمَا السَّبِيلُ على الذين يَظْلِمُونَ الناسَ ويَبْغُونَ فى الأرضِ بغير الحقِّ » دليل على أن هناك بغيا بالحق .

والفيء والفيأة : الرجوع الى حالة محمودة . والعدل : هو التقسيط على سواء ، وهو مساواة فى المكافأة ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . والإحسان : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر بأقل منه . ويقال : قسط الرجل ، إذا جار فأخذ قسط غيره ؛ وأقسط ، إذا عدل فأعطى قسط غيره .

(١) المشهور فى الرواية « الحلال بين والحرام بين الخ » . والرواية المذكورة ساقها الراغب فى مفرداته .

روى عن ابن عباس أن الآية فى الرجلين ، أو النفر والنفر ، أو القبيلة والقبيلة من أهل الاسلام : يقتتلان ، فأمر الله تعالى أئمة المسلمين أن يقضوا بينهم بالحق الذى أنزله الله فى كتابه : إما القصاص والقود ، وإما العقل والدية ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى بعد ذلك ، كان المسلمون مع المظلوم على الظالم حتى يرضى بحكم الله . وعلى هذا فالصلح والقتال المطلوبان فى الآية واجب الإمام ، لأنه قائم مقام المسلمين ، ونائب عنهم ، وخليفتهم ؛ فاذا وجد بلد لا يمتد اليه سلطان إمام المسلمين ، وجب على جماعة المسلمين ما هو واجب على الإمام . ولجماعة المسلمين تصرفات نافذة معروفة فى كتب المذاهب . وروى الزهرى عن سالم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » .

وعلى هذا فاذا اقتتل اثنان أو جمعان من المسلمين ، فعلى الإمام الإصلاح بينهما ، بالدعاء الى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، وبالنصح وإزالة الشبهة ؛ فإن تعدت إحداهما ما جعله الله عدلا بين خلقه ، وطلبت العلو بغير الحق ، ورضيت به الطائفة الأخرى ، قاتل المسلمون الطائفة الباغية حتى ترجع الى حكم كتاب الله ؛ فإن رجعت بعد القتال ، أصلح بينها وبين الطائفة الأخرى بالعدل والإنصاف ، ولا يكتفى بالمتاركة والمحاجزة والكف عن القتال ، بل لا بد من الإصلاح بالعدل ، لتزول الضغينة ، ويأمن الناس رجوعهما بعد ذلك الى القتال . والله تعالى يحب المقسطين ، فيجازيهم أحسن الجزاء على عدلهم .

تقاتل الفئة الباغية ما قاتلت ، فاذا قبضت أيديها عن الحرب وكفت ، تركت ؛ وإذا ولت وركنت الى الفرار لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب هاربها ، ولا يقسم فيئها ؛ وإن بغى الفئتان معا ، أصلح بينهما على الطريقة التى يراها المسلمون كافلة للموادعة والمكافة ؛ فان لم تتحاجزا وأقامتا على البغى ، وجبت مقاتلتهما معا ، لأن البغى فساد فى الأرض ، وخروج على السنن الإلهية ، وتعد على العدل الذى يحبه الله ويأمر به ؛ وعلى المسلمين أن يطهروا الأرض من البغى والفساد ، لتعمر بالعدل والإحسان .

هكذا يطلب الله من المسلمين أن يكونوا حراسا للعدل ، وقواما عليه . ومن حق من يضعه الله فى هذا الموضع ، ويمنحه هذه الدرجة من الشرف ، أن يعد نفسه لهذا الشرف ، وأن يقدم كل شىء يملكه تلبية لهذا الواجب الرفيع الشأن ، من نفس ومال .

وإن اقتتل فئتان بشبهة دخلت عليهما ، وكلتاهما ترى نفسها محقة ، وجب إزالة الشبهة وإطلاعهما على مراشد الحق ؛ فإن ركبتا متن الغواية واللجاجة ، ولم تعملا بما هديتا اليه ونصحتا به ، اعتبرتا فى حكم الباغيتين .

وللفقهاء أحكام مفصلة فيما يتلفه العادل على الباغى ، وبالعكس . ولا بأس من ذكر بعضها هنا إجمالا :

أما المتلفات فى غير القتال فمضمونة ، على القواعد الممهدة فى قصاص النفوس وغرامة الأموال . وأما متلفات القتال فلا تضمن ؛ لا يضمن العادل لأنه مأمور بالقتال ، ولا يضمن الباغى لأن إزالة الضغينة وحب الإسراع فى وقف القتال يدعوان الى التسامح فيما أتلف من نفس ومال . وعلى ذلك كانت الوقائع التى جرت فى عصر الصحابة والتابعين ، فلم يطلب فيها بعضهم من بعض ضمان نفس أو مال . لكن الأموال المأخوذة فى القتال ترد بعد انقضاء الحرب الى أهلها من الجانبين . وهذا كله فى البغاة الذين لهم شوكة من عدد وعدة ، ولهم تأويل باطل ؛ أما الذين لاشوكة لهم فهم فى حكم قطاع الطريق ، عليهم ضمان ما أتلفوه من نفس ومال .

والذين لهم شوكة وليس لهم تأويل ، اختلف الفقهاء فيهم ، فمنهم من ضمّنهم ، وهو الظاهر الموافق لقوله سبحانه : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » ، ومنهم من نفى الضمان عنهم .

***

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) :

فى هذه الآية تقرير لما أمر الله به من الإصلاح فى الآية السابقة ، وبيان للعلة فيه . ذلك أن الإيمان عقد بين أهله ، من السبب القريب ، والنسب اللاصق ، ما هو إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها ، لم ينقص عنها ، ولم يتقاصر عن غايتها . وقد جرت العادة بين الناس على أنه إذا نشب قتال بين أخوين من أخوة الولاد لزم سائر الناس أن ينهضوا فى إزالته ورفعه ، ويمشوا بالصلح بينهما الى أن يرقعوا ما وهى من الوفاق ؛ فالأخوة فى الدين أحق بذلك ، وأحق بأكثر منه . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه » .

وطلب الله بعد عقد الأخوة بين المؤمنين أن يتقوه ؛ وبيّن أن تقواه سبيل التواصل والتراحم ، وأن هذا سبب وصول رحمة الله اليهم .

***

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

السخرية : الاستهزاء والنظر الى المسخور منه بعين النقص ، واحتقاره قولا أو فعلا ، بحضرته .

والقوم : الرجال خاصة ، لأنهم القائمون على شئون النساء ؛ ومنه قول زهير : أقومٌ آلُ حصن أم نساء * وأما قوم فرعون وقوم نوح وعاد ، فمن باب تغليب الذكور على الإناث .

واللمز : الطعن والضرب باللسان ، والتنبيه على المعايب فى حضرته . ولا يدخل فى مفهومه قصد الاحتقار ، كما يدخل فى السخرية . وهـذا هو الفارق بينهما .

والتنابز بالألقاب : التداعى بها . والاسم : معناه الذكر ، مأخوذ من قولهم : طار اسمه فى الآفاق .

ينهى الله المؤمنين عن سخرية بعضهم من بعض ، فلا يحل لرجل أن يسخر من رجل أو امرأة أو جمع من الناس ، ولا لامرأة أن تسخر من امرأة أو رجل أو جمع من الناس . وقد جاء النهى فى الآية منصبا على سخرية القوم من القوم ، والنساء من النساء ، بناء على ما هو الأعم الأغلب من وقوع السخرية فى المجامع ، ومن أن القوم يسخرون من القوم ، والنساء من النساء . على أن هذا التركيب يدل بالعرف اللغوى على النهى عن السخرية على أى وجه من الوجوه .

ثم بيّن الله تعالى العلة فى النهى ، وهى أن المسخور منه قد يكون خيرا من الساخر فى الواقع ونفس الأمر وعند الله ، لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأمور ، ولا علم لهم بالخفيات ، وليس هناك شىء يقام له وزن عند الله إلا التقوى وخلوص الضمائر ، وهو وحده الذى يعلمها ، ولا علم للعباد بشىء منها ، فلا يجوز لأحد أن يجترئ على السخرية بأحد ، ولو كان ممن تزدريه العيون لرثاثة حاله ، وقلة ماله ، وقبح صورته ، وعىّ لسانه وفهاهته ، فلعله أخلص ضميرا ، وأنقى قلبا ، وأطهر سريرة ؛ ولعله يحمل بين جنبيه نفسا كريمة شريفة الخصال ، كاملة الخلق ، مهذبة بالعلم ؛ ولعله فى هذا كله أحسن حالا من الساخر ؛ وفى السخرية ظـلم بتحقير من هو فى نفسه عظيم لا يستحق التحقير .

ثم نهى الله المؤمنين عن اللمز والطعن ، وعن نداء بعضهم بعضا بما يكرهونه من الألقاب ؛ ونبههم الى أنهم ، وهم كنفس واحدة ، وكجسد واحد ، لا يليق أن يطعن بعضهم بعضا ، لأن الطاعن فى هذه الحالة يطعن نفسه ، ويطعن جسده ؛ وهذا هو السر فى قوله تعالى : « ولا تلمزوا أنفسكم » مع أن اللامز إنما يلمز غيره لا نفسه . وذهب صاحب الكشاف الى أن المعنى : وخُصوا أنفسكم أيها المؤمنون بالنهى عن اللمز ، ولا عليكم أن تلمزوا غيركم ممن ليس على دينكم أو ممن ليس على سيرتكم ، وهم المجاهرون بالفسق . وفى الحديث الشريف : « اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس» . وقد روى أنه من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يسميه بأحب الأسماء اليه .

ولقد كانت الكنية من الأدب الحسن . وقال عمر : أشيعوا الكنى فانها منبهة . وقلّ من تجده من المشاهير فى الجاهلية أو الاسلام ولا تجد له لقبا حسنا أو كنية : كالعتيق لأبى بكر ، والفاروق لعمر ، وسيف الله لخالد . ولم تزل الألقاب الحسنة والكنى تجرى فى الأمم كلها فى تخاطبهم وكتاباتهم من غير نكير .

تقدم النهى عن التلقيب بما هو مكروه ؛ ونذكر هنا أنه لا فرق بين أن يكون اللقب المكروه صفة له أو لأبيه أو لأمه أو غيرهما ممن له به صلة . وروى عن الحسن : أدركنا السلف وهم يرون العبادة الكف عن أعراض الناس . وقد قال الله تعالى : « ويل لكل هُمَزَة لُمَزَة » . والهمزة : الطعّان فى الناس .

بعد هذا بين الله سبحانه أن السخرية واللمز والتداعى بالألقاب موجبة للفسوق والخروج عن طاعة الله ، فلا يليق بالمؤمن الذى حل قلبه الإيمان أن يطلق عليه كلمة فاسق ، وأن يشيع ذكره بين الناس على وصف أنه فاسق بعد أن عُرف بالإيمان .

فمعنى « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » : بئس الذكر أن يُذكَر المؤمن بالفسوق بعد أن اتصف بالإيمان ، أى أنه لا ينبغى اجتماع هذين الوصفين : الإيمان والفسق ، كقولهم : بئس الشأن بعد الكَبْرة الصبوة . وهم يريدون استقباح الجمع بين الصبوة ـ أى ما يكون فى حال الشباب من الميل الى الجهل ـ وكبر السن .

وينبغى أن نذكر أن اللقب القبيح قد يشيع فيذكر ولا يتأذى صاحبه منه ، وقد تدعو اليه الضرورة فيذكر لا على قصد التحقير ، كما يقول المحدثون : سليمان الأعمش ، وواصل الأحدب . وفى هذه الحالة لا ينهى عنه .

ثم ذكر الله سبحانه أن التوبة عن هذه الأمور واجبة لازمة كالتوبة عن سائر المعاصى ، وأن من لم يتب فهو ظالم لنفسه ، لأنه عرضها لسخط الله وعذابه .

وينبغى أن نذكر هنا كلمة عن التوبة : فهى ليست قول الشخص : أستغفر الله وأتوب اليه . كلا ! هذا القول لا يسمى توبة ، ولا هو الذى يطلبه الله سبحانه ويحبه : « إنَّ اللهَ يحبُّ التّوابينَ ويُحب المتَطَهِّرين » . التوبة تستدعى معرفة عِظَم ضرر الذنوب والإدمان عليها ؛ وتستدعى ألم القلب وحزن النفس من البقاء على الحالة الأولى حتى يشعر الانسان بوصول الألم الى العظم ، وحزّه فيه ، وبأن كبده تكاد تذوب ، وبأن الكرب يحيط به ولا مفرج له إلا الله سبحانه ؛ وتستدعى العزم على ترك الذنب والإقلاع عنه .

فحقيقة التوبة : علم ، وندم ، وقصد . وإذا فقد أحدها فقدت . وغير خاف أن معرفة كون المعاصى مهلكات جزء من الإيمان ؛ وعدم المبادرة الى التوبة مفوت لجزء من أجزاء

الإيمان ؛ ولو كان الإيمان كاملا لما أقدم مؤمن على معصية . وهذا يفسر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . ولا بد في التوبة المقبولة أن تكون قريبة من الذنب : « إنما التوبةُ على اللهِ للذين يعملون السوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من قريبٍ ، فأولئك يتوبُ اللهُ عليهم ، وكان اللهُ عليماً حكيماً . وليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدَهمُ الموتُ قال إني تبتُ الآنَ ، ولا الذين يموتون وهم كفارٌ ، أولئك أعتدْنا لهم عذاباً أليماً (١) » . وقد يسترسل المذنب في ذنوبه حتى تصير طبعا ، ويران على القلب فلا تحله الندامة على الذنب ، ولا القصد الى الخلوص منه ؛ فإذا قال صاحب هذا القلب : إني تبت إليك ، كان قوله كقول القصاب الذي يغسل الثياب : إني غسلت الثوب ، دون أن يغسله .

***

(يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم) :

اجتنبه : كان على جانب منه ، ثم شاع في التباعد اللازم له .

والظن : اسم لما يحصل عن أمارة قوية أو ضعيفة ؛ فإن قويت جدا أدت الى العلم ، وإن ضعفت جدا لم تتجاوز حد الوهم .

والإثم : الفعل المبطئ عن الثواب ، وجمعه آثام . وقوله : « أخذته العزةُ بالإثم (٢) » معناه : حملته على فعل ما يؤثم . والآثم : الذي يحتمل الإثم .

والجس : مس العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم . وهو أخص من الحس ، فإن الحس تعرف ما يدركه الحس . ويرى بعضهم أنهما متقاربان ، وأن مشاعر الإنسان يقال لها الجواس ، كما يقال لها الحواس .

والغيبة : أن يذكر الإنسان غيره بسوء ، وبما فيه من عيب في غيبته ، من غير أن يحرج الى ذلك . وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : « أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » .

---

(١) النساء : ١٧ ، ١٨ (٢) البقرة : ٢٠٦

من الظن ما يباح اتباعه : كالظن فى أمور المعاش وما أشبه ذلك ؛ ومنه ما يجب اتباعه : كالظن فى الأحكام الشرعية الثابتة بأدلة غير قطعية ؛ ومنه ما يحرم اتباعه : كالظن فى الإلهيات والنبوات ، والظن حيث يوجد دليل شرعى قطعى يخالفه . ومن الظن المحرم ظن السوء بالمؤمنين ؛ فقد حرم الله من المسلم دمه وعرضه ، وأن تظن به السوء . والمحرم هو عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ؛ أما حديث النفس ، والخواطر ، والشك ، فكل ذلك معفو عنه . والمنهى عنه ركون النفس وميل القلب . والأسرار لا يعلمها إلا علام الغيوب ؛ فليس لك أن تعتقد سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان ، أو ثبت ببرهان . أما ما لم تشاهده ولم تسمعه فى أذنك ، بل وقع فى قلبك ، فالشيطان يلقيه ، والشيطان فاسق كاذب . ولا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال من مشاهدة أو بينة عادلة . وأمارة سوء الظن وعقد القلب ، تغيرُ القلب عما كان . نعم قد يعذر الانسان فى ظن السوء إذا أخبره العدل الثقة .

هذا الذى سبق بيانه خاص بالمعروف بالصلاح ، ومن أونست فيه الأمانة ، أو شوهد منه التستر ؛ أما المجاهر بالمعاصى ، ومن يتعاطى الريب ، فلا يحرم سوء الظن به وإن لم يره الظان على معصية ، لأنه مكّن من صفحته ، وأزال حرمة عرضه .

ومن الظن ما هو قهرى غير مستطاع الدفع ، فلا يتعلق به النهى لعدم القدرة عليه ، بل يتعلق بعدم العمل بموجبه . وقد يظن شخص أن أحدا يريد به سوءا ، فهذا الظان لا يضره أن يحترس ، لكن يضره أن يوقع أذى بالمظنون منه السوء . وعن سعيد بن المسيب قال : كتب الىّ بعض إخوانى : « أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا ، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومنّ إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده ، وعليك بإخوان الصدق ، فكن فى اكتسابهم ، فانهم زينة فى الرخاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك ، إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، وشاور فى أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب » .

نهى الله سبحانه عن ظن السوء بالمؤمنين ، لأنه مدعاة الى التحقير والسخرية واللمز ، ومدعاة الى إيقاع الضرر بالمظنون به . وظن السوء خدش للعرض وهتك للحرمة ، وقد صان الله عرض المسلم كما صان دمه . وقد عرف مما سبق وجه قول الله : « اجتنبوا كثيرا » ، فان بعض الظن يباح اتباعه ، وبعضه يجب اتباعه .

نهى الله عن ظن السوء ، ونهى عن التجسس ، وتتبع عورات المسلمين ؛ ومن حق المسلم على المسلم ستر عوراته ؛ ومن ستر على مسلم ستره الله تعالى فى الدنيا والآخرة . وقال عليه السلام لمعاوية : « إنك إن تتبعت عوراتِ الناس أفسدتهم ، أو كدت تفسدهم » . وقال

أبو بكر : لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى لما أخذته ، ولا دعوت اليه أحدا حتى يكون معى غيرى . وفى الحديث الشريف : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فان من تتبع عورات المسلمين فضحه الله فى قعر بيته » . وكل من أغلق باب داره ، وتستر بحيطانه ، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية . وقد دفعت كراهة المنكرات عمر بن الخطاب الى تتبع العورات بعض الأحيان ، فقد كان يعسّ بالمدينة فسمع صوت رجل فى بيته يتغنى ، فتسوّر عليه ، ووجد عنده امرأة ، وعنده خمر ، فقال عمر : ياعدو الله ! أظننت أن الله يسترك وأنت على معصية ؟ ! فقال : وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علىّ ! إن كنتُ عصيتُ الله تعالى واحدة فقد عصيتَ أنت الله فى ثلاث : قال : « ولا تجسسوا » وقد تجسست ؛ وقال : « وأتوا البيوت من أبوابها » وقد تسورت ؛ وقال : « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » وقد دخلت بغير إذنى ! ! ! وكأنه قال له : وأنت أمير المؤمنين تبعاتك وعصيانك أشد ! فقال عمر : فهل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال الرجل : نعم ، والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت لا أعود الى مثلها أبدا ! فعفا عنه عمر ، وخرج وتركه .

نهى الله تعالى عن الظن ، وعن التجسس ؛ ونهى عن الغيبة أيضا ، وهى أن يذكر الانسان أخاه المسلم فى غيبته بما يكرهه ، سواء كان الذكر صراحة ، أو كناية ، أو إشارة ، أو رمزا ؛ وسواء كان مايذكره متعلقا بدينه أو دنياه ، وبخلقه أو خلقه ؛ وسواء أكان متصلا به أو بمن له به رابطة وصلة : من ولد ، وزوجة ، وأب ، وأم . وتحرم غيبة المعروف بالصلاح ، ومستور الحال ؛ ولا تحرم غيبة المجاهر بالفسق ، والداخل فى مواطن الريب . وقد نقل القرطبى إجماع المسلمين على أن الغيبة من الكبائر . وبعد أن صورها الله أبشع تصوير فى آخر الآية ، لا يصح أن تعد فى الصغائر . ثم منها ما هو هين كعيب الشخص فى لباسه أو دابته ، وما أشبه ذلك مما لا يتصل بالدين والخلق ؛ فاذا قيل : إن مثله من الصغائر كان مقبولا .

ويجوز لمن ظُلم أن يشكو ظالمه ، ويذكر ما فعله معه مما يعد عيباً ؛ كما يجوز لمن يريد تغيير منكر أن يذكر ذلك المنكر للقادر على تغييره ؛ ويجوز تحذير المسلمين من شر ، بتجريح الشهود والرواة ، وإطلاعهم على أمور تدبر ضارة بالمجتمع الاسلامى ، كما يجوز ذكر ما فى الولاة والقضاة من شر للقادر على عزلهم .

وقد تضمنت الآية لطائف : ففيها ذكرت أمور ثلاثة مرتب بعضها على بعض : نهى عن الظن فى المسلم ، والقول فيه بغير علم ؛ ونهى عن البحث عن ذلك لتحقيقه ؛ ونهى عن إذاعة ذلك إذا تحقق . وختمت الآية بإطماع المؤمنين فى رحمة الله بالتوبة ؛ وفتح الله الباب بقوله على سبيل المبالغة : « إن الله تواب رحيم » .

ومن أخبث أنواع الغيبة ، غيبة القراء والعلماء ، يظهرون أنهم لا يحبون الغيبة ولا يحبون سماعها ، ولـكنهم يحتالون عليها بالباسها ثوب الدعاء والإشفاق لمن يريدون اغتيابه . مثلا يذكر أمامهم شخص فيقولون : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، ولا بطلب حطام الدنيا ! أو يقولون : والله ما أحسنه ! ما كان يقصر فى عبادة ، لـكنه ابتلى بما يبتلى به سائر الناس ، لطف الله به ! أو يقولون : والله لقد غمنا أمره وما ابتلى به ، مسكين ، أحسن الله حاله !

وقد يُظهر القارئ والعالم الغضب لله سبحانه ، والغيرة على دينه ، أو يتعجب من ظهور المنكرات ، وفشو الفسق ، فيقول مثلا : انظر إنما نحن فى آخر الزمان ، لقد شوهد فلان وهو يفعل كذا ، أو بلغنى أن فلانا فعل كذا .

وللغيبة أسباب ، أهمها : الغيظ ، وهياج الغضب ، فيذكر الانسان عيوب غـيره لشفاء النفس من غضبها ، ومجاملة الرفقاء ، وإرادة أن يرفع الانسان نفسه بالنقص من غيره . ومنها الحسد ، وهو أهم الأسباب . ومنها اللعب ، والهزل ، والمفاكهة ، وإضاعة الوقت .

وقد صور الله المغتاب على أخس وجه وأشنعه ، وضرب له مثلاً من يأكل لحم أخيه ميتا ؛ وذلك أن صاحب العرض يغار على عرضه ويألم له كما يألم الرجل من تمزيق لحمه ؛ فالمغتاب يمزق لحم من اغتابه . ولما كان ممزّق اللحم غـير حاضر وغير محس تمزيق عرضه وقت الغيبة ، كان كالميت إذا مزق لحمه ، وكان المغتاب آكلا لحم أخيه ميتا .

وقوله تعالى : « فـكرهتموه » واقع موقع جواب شرط ، وكأنه قيل : لا يحب أحـد أن يأكل لحم أخيه ميتا ، فإن صح هـذا منكم ، وهو لابد صحيح ، فقد كرهتموه ، ومتى كرهتموه فاتقوا الله بترك ما يماثله وهو الغيبة .

وهو تواب : يفتح باب توبته لمن يقبل عليه . وهو رحيم : يرحم التائبين .

وتقول العرب للمغتاب : فلان يأكل لحوم الناس . ومنه قول الشاعر :

وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضُنا بعضا عيانا

وقول الآخر :

فإن يأكلوا لحمى وَفَرت لحومهم ... وإن يهدموا مجدى بنيت لهم مجدا

كلمة الاستاذ الاكبر

فى احتفال الأزهر بعيدى الهجرة والميلاد الملكى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر مواقف فى مناسبة الذكريات الإسلامية يترقبها المسلمون فى العالم بأسره، أخصها ذكرى الهجرة النبوية؛ فقد اعتاد فضيلته أن يلقى فيها خطبة مغاغلة يتناقلها الناس فى الآفاق، ويتدارسونها فى نواديهم. وقد أفاض الله على فضيلته فى هذه السنة كلمة جمعت بين ماضى المسلمين وحاضرهم، وعرضت من أدوائهم ودوائهم ما شعوبهم فى أشد الحاجة إليه لإصلاح شئونهم، ورأب صدوعهم، فى سمو يأخذ بالألباب، وبيان يستهوى الأسماع. وقد اتفق أن كان قد أظل عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، فختم فضيلته خطابته بذكر مناقب جلالته، وما أفاض الله على مصر والعالم الإسلامى من فضائله وفواضله، فازداد الاحتفال بذلك جلالا على جلاله.

والى القراء نص خطبة الأستاذ الإمام حفظه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم. ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا.

أيها الإخوان:

أحييكم تحية الاسلام، وأهنيكم بالعام الهجرى الجديد، الذى اجتمعنا الليلة فى الأزهر تحية له، وتمجيداً للهجرة، ولصاحبها سيدنا محمد بن عبد الله، أشرف من سعى على الأرض، وأطهر الخلق ضميرا، وأشرفهم غاية وقصدا. وأبعث من هذا المكان الطاهر تهنئتى وتحياتى الى الأمم الإسلامية فى أقطار الأرض قاصيها ودانيها.

هاجر محمد من وطنه، والوطن لاصق بنفس صاحبه، عزيز عليه أن يفارقه؛ وإذا فارقه فالنفس نازعة اليه، شديدة الشوق والحنين. وقد قيل قديما: ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنعَ منهم بأوطانهم. وقد عمر الله البلدان بحب الأوطان.

وليس أدل على أن الوطن عديل النفس، وعديل الأبناء، من قول الله سبحانه: « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا مَلِكا نقاتلْ فى سبيل الله، قال هل عسَيتم إن كُتب عليكم القتالُ ألّا تقاتلوا، قالوا وما لنا ألّا نقاتلَ فى سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا »، وقولِ الله سبحانه: « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا

من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم » . فهؤلاء الأشراف من بنى اسرائيل قد قالوا : كيف لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فجعلوا الإخراج من الديار داعيا قويا ملحا فى الإقدام على سفك الدم ، والاستهانة بالأرواح ، ولم يكن سبيل الله عندهم كافيا وحده للقتال ، بل الذى أغراهم به وهاج نفوسهم اليه هو الإخراج من الديار والأبناء ؛ وقد سوّى الله سبحانه بين الأمر بقتل النفس والأمر بالخروج من الديار فى أنه لا يفعله إلا القليل .

هذه قيمة الوطن عند الأشراف ، وتلك قيمته عند عامة الناس أيضا .

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الذؤابة من قريش ، وكان أطهرهم نفسا ، وأكرمهم خلقا ؛ وكان شديد الحرص على هداية قومه ، حتى خاطبه الله سبحانه بقوله : « فلعلّك باخِعٌ نفسَك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » ؛ فلم يكن من الهين على نفسه الكريمة أن يفارق وطنا ولد فيه ، وطعم طعامه ، وشرب ماءه ، وتنفس فى جوه ، وأشرقت عليه فيه شمس الهداية الربانية ، واتصلت روحه فيه بالوحى الإلهى ، ولقى فيه أخاه جبريل موفدا من قبل الله سبحانه لهداية قومه والناس ؛ لكن الدواعى قوية ملحة ؛ فقد حاربه قومه ، وحاولوا الحط من شأنه : كذبوه فى دعوى النبوة ، وأغروا به الشعراء يهجونه ، وأعنتوه فطلبوا منه معجزة كونية كمعجزة موسى وعيسى « وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنبُوعا ، أو تكونَ لك جنةٌ من نخيل وعنب فتفجّرَ الأنهارَ خِلالها تفجيرا ، أو تُسقِطَ السماء كما زعمتَ علينا كِسَفا ، أو تأتىَ بالله والملائكةِ قبيلاً ، أو يكونَ لك بيت من زخرف ، أو ترقَى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزِّل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنتُ إلا بشراً رسولا » .

ضاقت قريش ذرعا به وضاق بها ذرعا ، فلم يكن إلا شىء واحد : أن تظفر به أو يظفر بها ، فقد عاب معتقداتهم ، وسخر من آلهتهم ، وضلل آباءهم ، وسفه عقولهم ، وفتح للناس باب الحرية ، وساوى بين الشريف والوضيع ، ولم يقم للأنساب وزنا ، وجعل الكرامة للتقوى ، وهوّن شأن المال ؛ وكل هذا يغرس البغضاء فى نفوس أهل الثراء ، ويولد الحقد عند ذوى الأنساب ، وهو لا يحتمل مثله اليوم بعد أن مضى على الإسلام قرابة أربعة عشر قرنا ، فأولى ألا يحتمل عند أشراف قريش فى الجاهلية .

لذلك قامت قريش تحاربه بكل ما تستطيع من الحول والقوة ، تناولته بالأذى ، وشردت أتباعه ، وأذاقتهم عذاب الهون ؛ ولا يخفى ما للحسد من القوة على بعث الشر وإيقاظ الفتنة ، وما للقرابة من الأثر فى إيقاد نار الحسد والبغضاء . وقد كان الوليد بن المغيرة يقول : أينزل الوحى على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك عروة بن مسعود الثقفى سيد ثقيف ؟ « لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيمٍ . أهم يقسمون رحمة ربك ! نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا »

وقد نقل عن أبي جهل قوله : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ؛ فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه !

حاربوه بالدعاية ، وحاربوه بالحصار الاقتصادي كما تفعل الدول اليوم ، فقالوا : ساحر كذاب ، وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه ، وقالوا : معلم مجنون يفرق بين المرء وزوجه ، والولد ووالده ، والعشيرة والعشيرة ، والقبيلة والقبيلة ، وكتبوا كتابا تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، لا يصهرون اليهم ، ولا يبيعونهم ، ولا يبتاعون منهم ، وعلقوه في جوف الكعبة توكيداً لما فيه .

بعد هذا كله ، لم يكن بد من الهجرة ، لأنه لم يكن هو وأتباعه من القوة بحيث يكون لهم الظفر على قريش ، فهاجر فرارا بنفسه وبدينه من هذه البيئة المليئة بالحقد ، وبظلمة الكفر ، الى بيئة يجد فيها راحة ومتنفسا ، وله فيها أمل وثيق في قبول دعوته وفي الأخذ بيده . وقد كان موقف قريش معه وموقفه معها من أكبر العوامل في نجاحه بعد الهجرة ، فان ثباته على الدعوة واحتماله هو وأتباعه كل ما وجه اليهم من أذى ، كان من شأنه أن تتواتر أخباره ، وأن تترامى الى القبائل ، وكان من شأنه أن يفتح العين لإبصار نور الحق ، وأن يفتح بابا للتفكير ، حتى عند أشد الناس جمودا ، وأقواهم صلابة في الباطل ، وهكذا يخدم الحق بما يوجه اليه من الأذى ، ومن هذا يجب أن تؤخذ العبرة .

ولا أظن أنه قد بقي في الهجرة معنى لم يتناوله الناس في خطبهم ومقالاتهم وأشعارهم ، فنحن إذا قلنا فإنما نقول مكررا معادا .

لكننا مع هذا نحاول العودة الى العبرة ، ولا يجوز لنا أن نمر بها وبما يلابسها دون أن نعتبر ونتعظ ؛ وما قيمة ذكرى الهجرة إذا مرت ونحن عن العبر معرضون ، فندخل في قوله سبحانه : « وكأيّنْ من آية في السموات والأرض يَمُرُّون عليها وهم عنها معرضون » !

وما ابتليت الأمم عامة ، وما ابتلى المسلمون خاصة ، بأشد من البلاء بالإعراض عن الآيات والنذر ، والغفلة عن وجوه العبر .

أتظنون أن قوم نوح وعاداً وثمود وقومَ لوط وأصحاب الأيكة ، ركبوا من الإثم والبهتان أكثر مما ركبت الأمم في هذا الزمان ؟ وهل استمرءوا من الشهوات أكثر مما استمرأت الأمم اليوم ؟

وهل تظنون أن الله يهمل أمم اليوم فلا يعاقبهم كما عاقب تلك الأمم التي قص علينا في كتابه ما حل بها ؟ كلا ! إن الله قد بدأ ينزل على العالم بسبب طغيانه وتمرده مثل ما أنزله على الأمم الغابرة .

أغرق قـوم نوح بالطوفان ، وأرسل على عاد ريحا صرصراً عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، وأرسل حاصبا على آل لوط ، وأهلك آل ثمود بصيحة . كل هذه الآيات فاجأت تلك الأمم ، ولم يطل انتظارهم إياها من قبل .

وأين هذا من الرعب المستولى على العالم جميعه الآن ، حيث لا يعرف أحد عاقبة ما تصل إليه ويلات الحروب ، ولا يعرف هـل يكون له مدى من العمر يستمتع فيه بأهله وزوجه وأولاده وأصحابه ، أو يختطف فى لحظة من اللحظات ، فى البر أو فى البحر ، ومن صاعقة السماء أو من خسف الأرض ؟! وهذا الرعب تصاحبه صواعق القذائف ، من الجو ، ومن الأرض ، ومن البحر ؛ ويصاحبه الحرق والغرق . وقذائف الطائرات لا ترحم طفلا فى مهده ، ولا مريضا فى سريره ، ولا ناسكا فى معبده ، ولا عالما فى معهده ، ولا مقعدا ولا شيخا فانيا .

لا شبهة أيها الإخوان فى أن هذا كله إنما هو جزاء ما اقترف من الشرور ، من إلحاد وكفر ، وفسوق وعصيان ، وافتنان فى الشهوات ؛ وجزاء الأثرة والإعراض عن استغاثة الضعفاء والمظلومين ، من هول ما يلقونه من الأقوياء والظالمين ؛ وجزاء تسخير الأقوياء للأمم الضعيفة وعدّها أنعاما سائمة ترعى ثم تستمتع بخيراتها على ألوان من المتاع لم يكن يعرفها الناس من قبل هذه المدنية ، المارقة ، الفاجرة ، التى أغرق أهلها فى الشهوات ، وأغرقوا فى الإشادة بها والدعوة اليها .

أيها الناس :

تدبروا قول الله سبحانه : « قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين . وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولَدارُ الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون . حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا فنجّىَ من نشاء ، ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان فى قَصصهم عبرةٌ لأولى الألباب »

الإيمان بأن محمدا صلى الله عليه وسلم يدعو هو ومن اتبعه الى الله على بصيرة ، قاض بإجابة تلك الدعوة والعمل بها ، وهى قاضية بالإقلاع عن الشرور والمعاصى ، والتزام حدود الله ، والاتعاظ بما قصه الله سبحانه من سير الأولين ، والتدبر فى عاقبة ما حل بالأمم جزاء ما اقترفته ؛ فقد آن للمؤمنين أن يتدبروا ، وآن للأمم أن تعتبر وتتعظ ، وآن لهم أن يؤمنوا بأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فقد حل بأسه ، وسينجى الذين اتقوا ، وستكون لهم دار الآخرة ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟!

لا يأس من روح الله ؛ وقد آن المسلمين أن يستعدوا لحمل نصيب وافر من مدنية فاضلة روحية تخلف هذه المدنية الفاسدة ، التى جملت العالم أتّوناً ، وساقت الى ذلك الأتون أبناءها

طعاما ووقودا ؛ وآن لنا أن نفكر فى حياة عزيزة يصفو لنا فيها العيش ، فنستمتع بثمرات جهودنا ، ونضرب فى العلم بسهم ، وننصر مدنية فاضلة ؛ وآن أن نجاهد فى سبيل هذا لا نريد ظلما ولا نريد عدوانا « ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

لكن هذا لا يكون إلا إذا غيرنا أحوالنا : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . ونحن لم نذلّ عن قلة ؛ نحن كثير ، ولكنا كغثاء السيل ، لكنا مع هذا نستطيع أن نضع أمام أعيننا قبلة نولى وجوهنا إليها ، وأن نضع أمامنا هدفا نسعى إليه ؛ وإذا كنا ضعافا فنحن نقوى بالاتحاد ، ونقوى بالتناصر ؛ ولسنا بأضعف من موسى وقومه أمام فرعون وملئه ؛ وقد قال الله تعالى : « ونريد أن نَمُنّ على الذين اسْتُضعِفوا فى الأرض ، ونجعلَهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكّنَ لهم فى الأرض ، ونُرِيَ فرعونَ وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

أيها المسلمون :

فكروا وتدبروا ، وقابلوا الحوادث بالصبر ، واغتنموا الفرص فهى لا تسنح فى كل وقت ، واحرصوا على الإيمان فهو لصيق العزة ، إنما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وكونوا تلك الأمةَ الصالحة المؤمنة التى وعد الله أن يمكن لها فى الأرض ، ويبدلها من بعد خوفها أمنا : « إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبتْ أقدامكم . والذين كفروا فَتَعْساً لهم وأضلّ أعمالهم » .

أيها السادة :

كان من الحظ والسعادة فى مصر وفى الأزهر ، أن يقارن الاحتفالَ بالهجرة المباركة الاحتفالُ بعيد ميلاد مليك البلاد المفدى المحبوب ، حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أيده الله وأدام توفيقه ! والأزهر يصطفى جلالة الملك بحب طاهر ، وجلالته يخص الأزهر برعاية تامة ، عرفها الأزهريون فى أوقات عدة ، وفى مظاهر مختلفة ؛ وقد ورث جلالته هذه الرعاية عن المغفور له والده العظيم ، وكلاهما يعتقد اعتقادا خالصا أن الأزهر يؤدى رسالة دينية سامية للبلاد المصرية وللعالم الإسلامى ، وأن حياة الأمم حياة صالحة لا تكون إلا بفهم الدين وبيانه وإرشاد الناس اليه .

وكما أن مصر موضع آمال الأمم الاسلامية فى الثقافة والعلم والمدنية ، وفيما يجيش بصدور تلك الأمم من آمال جسام للإسلام وأهله ، من مجد وعزة ، الى صولة وقوة ودفاع عن الحق ، الى مقاومة للطغيان ، حتى يعود التاريخ الإسلامى سيرته الأولى فى أروع مظاهرها ، كذلك الفاروق ــ أطال الله حياته فى السعادة والعز ــ هو قبلة الجميع ، ومعقد رجائهم ، وله من الفطرة

السليمة ، والسريرة الطاهرة ، والنظر الثاقب ، والإحاطة التامة بأحوال الأمم الإسلامية ، والحرص على أن يراها عزيزة متحدة متضامنة فى الغاية والقصد ، عزيزة بالعلم والدين ، لها من المكانة الرفيعة ما يجعلها فى الصف الأول من صفوف الأمم ، قائمة بقسط عظيم فى سلام العالم ، وتضميد جراحات الانسانية ؛ له من ذلك كله ما يجعله أهلا لأن تتجه اليه الأبصار .

وكما نحتفل بالهجرة لما لها من الآثار البالغة فى قوة الإسلام وعزه ، نحتفل بعيد الفاروق ، لخلاله الكريمة الجديرة بالإعجاب ، ولما نؤمله فيه من عز للإسلام عظيم يكون لجلالته فيه أكبر الأثر وأحسن التوجيه .

ونسأل الله القادر على كل شيء للأمة المصرية رعاية من الله وعونا ، وهديا وتوفيقا ، وللأمم الإسلامية جميعها صفاء وأمنا وسلاما ، وأن يعيد للعالم جميعه عهد سلام ورجوع الى الله سبحانه ، وأن يؤيد الفاروق بروح من عنده ، ويديم له التوفيق ، ويعزه بالدين !



السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة

انتهى أمر قريش الى التآمر على حياة النبي صلى الله عليه وسلم على حالة لا تمكن عشيرته من الثأر له ، فتكتفى بقبول الفدية عنه ، وذلك جريا على رأى أحدهم فى أن يشترك فى ضربه بالسيف شاب من كل بطن من بطون قريش وأفخاذها ، فيتفرق دمه فيهم جميعا ، فلا تقع حرب بسببه . وقرروا البدء فى العمل من فورهم .

فأنبأ الله رسوله بما استقر عليه رأى المشركين ، وأمره باللحاق بأصحابه فى المدينة ، فجاء من ساعته الى أبى بكر وأخبره أن الله قد أذن له فى الهجرة ، فطلب إليه أبو بكر أن يصحبه ، فقبل طلبه . وأتى الصدّيق براحلتيه اللتين أعدهما ، وبجراب فيه طعام يكفيهما أياما ، واستأجرا هاديا ماهرا اسمه عبد الله بن أرقط ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال .

ثم ترك أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم ، مواعدا إياه التقابل فى جنح الظلام خارج مكة ، وكانت تلك الليلة ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقره مؤتمرهم ، فأمر النبي عليا أن يرقد فى سريره ، موهما أنه هو حتى يشغلهم عنه بعض الوقت ، وخرج هو متخفيا حتى لحق بصاحبه خارج مكة ، وأخذا يسيران جادّين حتى انتهيا الى غار مهجور يقال له غار ثور ، فدخلا فيه .

أما المشركون فكانوا قد حاصروا الدار ، واستعدوا لاقتحامها متى مضى هزيع من الليل ، وكانوا فى أثناء ذلك ينظرون من خِصاص الباب (أى فُرَجه) فيرون رجلا على سرير النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم مسجًّى ، فيظنونه هو فيطمئنون على وجوده . فلما جاء الوقت اقتحموا السور ودخلوا البيت ، فتنبه النائم وإذا هو على بن أبى طالب ، فسألوه : أين محمد ؟ فقال : لا أدرى ، فأوجعوه ضربا ، ثم رأوا أن يتعقبوا رسول الله ، فخرجوا خلفه ومعهم قائف يعرف مواقع الأقدام ، فمازالوا يسيرون حتى انتهى القائف الى الغار وقال : ها هنا انقطعت آثار الأقدام . فلما نظروا الى الغار وما هو عليه من الظلام والوحشة ، وما أوى إليه من الهوام والحشرات ، كبر عليهم أن يصدقوا أن رجلا يجازف بنفسه فيدخل فيه ، وكان فى أثناء ترددهم على الغار يرى أبو بكر أرجلهم ، فأدركه من ذلك فزع عظيم بكى منه ، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم

وهدّأ روعه ، وبشره بأن الله منقذه ، وقد جاء ذلك فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمةُ الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » . وقد صدَقه الله وعده ، فصرف الكفار عن اقتحام ذلك الغار استبعادا منهم أن يكون قد أوى إليه .

فأقام رسول الله وصاحبه فى الغار ثلاث ليال ليتحققا من انقطاع الطلب ، وكان يبيت معهما عبد الله بن أبى بكر وهو شاب ثقِف لقِن (أى حاذق سريع الفهم) ، فكان يُدلج من عندهما سحرا فيصبح بمكة كبائت فيها ، فيتسمع الأخبار ثم يعود إليهما ليلا متسللا ، فيخبرهما بما وعاه . وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها ويغدو بها عليهما .

ولما انقطع عنهما الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحلتين ، وسارا متبعين الساحل لا يلوون على شىء ، وكان أهل المدينة قد اُخبروا بسفره اليهم ، فكانوا ينتظرونه كل يوم ، حتى أقبل فاحتفوا به فرحين مغتبطين وساروا معه ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بقباء حيث بنو عمرو بن عوف ، وكان ذلك فى ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ .

فأقام صلى الله عليه وسلم بقباء ليالى أسس فيها مسجدا ، وصلى فيه بمن معه من أصحابه المكيين واليثربيين ، وقد دُعى الأولون بالمهاجرين ، والآخرون بالأنصار .

ثم تحول النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة فاستقبله أهلها نساء ورجالا بما يستقبل به كبار الفاتحين ، وكان الناس يسيرون خلفه مشاة وركبانا يتنازعون زمام ناقته كل منهم يريد أن ينزل عنده .

وأدركته صلاة الجمعة وهو فى ديار بنى سالم بن عوف ، فنزل وصلاها ؛ وهذه أول جمعة صلاها جماعة ، وخطب فيها ، صلى الله عليه وسلم .

ثم سار وكلما مر على ديار للأنصار دعوه للنزول عندهم ، ولكنه فضل أن ينزل بدار خالد ابن زيد ، وهو الذى عُرف بعد بأبى أيوب الأنصارى ، وكان من بنى عدى بن النجار أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده .

وفى المحل الذى أناخ فيه رسول الله ناقته ، بنى مسجده ، وجعل بجواره حجرات لسكنه ، وبعد أن تم السكن انتقل اليه بعد أن لبث فى دار أبى أيوب الأنصارى سبعة أشهر .

وتنافس أهل يثرب فى إيواء المهاجرين حتى حكّموا بينهم القرعة .

ولما استقر برسول الله المقام بالمدينة ، أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع الى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله ، فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتيه ، وسودة زوجته .

نظرة علمية تحليلية فيما سبق :

إن صبر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة على هذا الاضطهاد البالغ أقصى حدود الوحشية ، إذا لم يكن فوق الطاقة البشرية ، فانه يشف عن عقيدة راسخة فى رسالته . ولو كان هذا الصبر منه وهو فى ميعة السن ، وريِّق الصبا ، لأمكن تعليله بأنه من فتوة الشبيبة ، ومجازفاتها فى سبيل الشهرة ، ولكنه كان فى عشرة الخمسين ثم آلت الى عشرة الستين حيث تهدأ ثوائر النفس ، وتسكن جيشات الأهواء ، وتهيب الطبيعة بصاحبها الى الهدوء والسكينة .

ولو كانت مجرد مشادّات كلامية ، ومناظرات مذهبية ، لهان أمرها على التعليل ، فان من الناس من يأنسون الى مثل هذه الحياة الحافلة بالمجادلات ؛ ولكنها مشادات عدوانية امتدت معها أيدى المشركين على أصحابه وعليه بالأذى حتى اضطر عدد كبير منهم الى المهاجرة مرتين ، ضنا بأنفسهم على الهلاك ، وليس الاضطهاد الذى يحمل الأسر برمتها على الهجرة الى البلاد القاصية ، بالأمر الذى يستهان به . ناهيك بالمخاوف التى تحمل أصحاب النبي على تركه يدفع أذاهم وحده ، بل التى تحمل مثل عمر فى شدته على النجاة بنفسه والمهاجرة الى يثرب ، وتدفع بأبى بكر فى تفانيه فى حب نبيه على أن يستأذنه فى أن يهاجر كغيره ، وما أخره إلا منع رسول الله له ليهاجر فى صحبته .

فالداعية الذى يرى أخلص أصحابه وأشجعهم يتفرقون من حوله ، ويدعونه وحده إزاء أعدائه ، ولا تتزعزع ثقته بفوزه ، لا يعقل أن يكون مفتريا فى نبوته ، ولا متكلفا لما هو بصدده ، ولكن الذى يعقل هو أنه كان يعتقد بأن أعداءه لن يصلوا اليه بسوء ، اعتمادا على ما وعده ربه به عند أول عهده بالنبوة فى قوله تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدى القوم الكافرين » .

وهذه الثقة من النبي صلى الله عليه وسلم فى وعد ربه له بالعصمة ، تتجلى على أتم وجه فى بقائه بمكة الى الليلة التى تآمر فيها المشركون على قتله ؛ وكان فى وسعه أن ينجو بنفسه قبل ذلك بأيام بل بأسابيع ، حين لم يبق أمل فى كسر شرة خصومه ؛ وهل كان مثل عمر يضن بنفسه عن هذا الموقف ، وأبو بكر يستأذن النبي ليلحق به ، إلا والخطر محدق ولا يمكن دفعه ؟

وأعظم ما تجلت ثقة النبي صلى الله عليه وسلم بربه كان فى غار ثور ، وقد احتوشه من أرسلتهم قريش للحاق به ، وأبو بكر يرى أرجلهم تحوم حوله ، ويسمع أصواتهم وهم يتآمرون على اقتحامه ، فكان من أثر ذلك على الصدِّيق أن بكى من هول ما رأى وما سمع ، فالتفت اليه رسول الله وهدأ روعه قائلا له : لا تحزن إن الله معنا ؛ وقد جاء ذكر ذلك فى القرآن الكريم كما رآه قراؤنا فى الآية المذكورة فى هذا الفصل .

فهذا الثبات المحير للعقل فى وسط هذه المخاوف الموجبة لليأس ، لا يمكن أن يعزى لفضيلة الشجاعة فحسب، لأنها جاءت مصاحبة لثقة تامة بالخلاص والفلْج ، وهذا لا يكون بغير وحى .

ومن يتأمل فى انصراف المشركين عن الغار وقد انتهى اليه الأثر ، يأخذه العجب ولا يستطيع أن يعلل ذلك بعلة يثلج عليها الصدر . فلقد كان القرشيون أحرص الناس على أن يقبضوا على رسول الله ويقتلوه تخلصا مما عسى أن يجره عليهم من الحروب والمنازعات القبلية ، وقد دلهم قائفهم على أن آثار الأقدام انتهت عند ذلك الغار ، وكان للعرب ثقة مطلقة فى قافتهم(١) ، فيكون عدم تعويلهم على قوله مع وجود الغار فاغراً فاه ، ومع عدم استحالة الولوج فيه ، من أعجب ما يروى عن قوم كالعرب شديدى الكَلَب على أعدائهم !

رضينا أن نظن أن يكونوا قد تهيبوا النزول الى الغار لتفتيشه ، وأن يكونوا قد تخيلوا أن من ينزله تنوشه أفاعيه وترديه ، ولكننا لا نرضى ولا نقبل أن نتخيل أنهم يتركونه ويرجعون أدراجهم دون أن يحاصروه أياما وليالى حتى يتحققوا من خلوه ، والا اضطررنا أن نتهمهم بالإهمال فى أمر خطير فى نظرهم الى أبعد حدود الخطورة .

ولسنا نكتفى بهذا ، ولكننا نقول : كان يجب عليهم أن يقيموا فى كل الطرق التى يمكن أن يتسرب منها الى يثرب كبكبة من الفرسان ، تقطع الطرق على خصمهم كما هى عادة من يهمهم القبض على خصم . فإذ لم يفعلوا مع تحليهم بأرفع صفات الحيطة الحربية ، فان إغفالهم له قد فُسر بأن الله قد صرفهم عنه ، ولو كان لدىّ دليل على هذا الصرف لقلت به ، ولكنى التزمت فى هذه السيرة أن لا أتجاوز أصول الدستور العلمى ، فلا ألجأ الى الظن فى موطن يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية ، وحياة النبى صلى الله عليه وسلم حافلة بالآيات الدامغة ، فلا حاجة بها الى ما يمكِّن الخصوم من تجريحه . لذلك فأنا أفسره بأنه تغابٍ من قريش عما هم بصدده ، كما تغابوا عن هجرة كبار الصحابة الى يثرب ، كأنهم اكتفوا بأن يبعد عنهم النبى الى حيث لا يراه العرب فى مواسم الحج فيفتتن بعضهم ببيانه وشدة عارضته .

بقى علينا أن ننظر فى النظام الذى أقامه النبى صلى الله عليه وسلم لجماعته ، وفى الأصول التى وضعها للقيام بمهمته ، وفى المنازعات التى ابتنت على دعوته ، والحروب التى أثارتها الوثنية لمعاكسته ، وفى الأسلوب الذى جرى عليه صلى الله عليه وسلم فى بناء دولته . كل هذه المناحى ستؤدينا الى خوض دراسات إسلامية نرجو أن تكون موجبة لوضع السيرة المحمدية على نحو يناسب عقلية معاصرينا ودرجة ثقافتهم ، إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى

(١) القائف : من يتتبع آثار الأقدام لمعرفة اين انتهت . وهو يستعمل فى تعقب الهاربين ، جمعه قافة . وقيَّف وتقيَّف مثله .

أفعال العباد

طلب إلينا أن نكتب كلمة فى أفعال العباد نبين فيها الحق مما عليه الفرق الاسلامية . فنذكر ما حضرنا من كلام العلماء ، ومما أفيض علينا ، مما لعله أعظم الحلول وأفضل الآراء ، فنقول :

إنه ليكفى لنصرة مذهب أهل السنة ، وسقوط مذهب الجبرية ، أن الجبرية قد صادموا البديهة ، وخالفوا المحسوس ، فإن كل إنسان يفرق تفرقة ضرورية بين حركاته الاختيارية والاضطرارية ؛ وكل ما صادم الضرورة وناقض البديهة فهو غير مسموع ولا مستحق للرد عليه ؛ وقد كان من حقهم ألا يشتموا من شتمهم ، ولا يضربوا من ضربهم ، ولا يعاقبوا من جنى عليهم . ولكن من عرف استعداد الانسان ، وأنه مظهر المتضادات والمتناقضات ، ومجمع العجائب والغرائب ، لم يستغرب ذلك .

ولقد رأينا من متناقضات النوع الإنسانى ما يضحك الثكلى ويبكى الحليم ، فترى المعتزلة والجهمية قد غالوا فى التوحيد بزعمهم حتى وصلوا الى التعطيل ، بنفى الصفات ، وستسمع شيئا عنهم بعد ؛ والمشبهة تصدوا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام ؛ والرافضة غالوا فى النبوة والإمامة حتى وصلوا الى الحلول ، والقول بالعصمة فى غير الأنبياء ؛ والخوارج فرطوا حتى كفّروا بالذنب ؛ والمرجئة أفرطوا حتى أغروا الناس بالمعاصى ولم يقيموا لها وزنا ، الى غير ذلك من الحماقات والجهالات .

وإن شئت فانظر الى ما وقع فيه الخلاف حتى كان المختلفون فيه على طرفى نقيض : كالعلم ، وهو من أظهر الأشياء لدى كل إنسان ، فقال بعضهم : إنه لا يحد لكونه ضروريا ؛ وقال آخرون : لا يحد لكونه من النظريات التى يصعب تحديدها ؛ وكذلك اختلافهم فى الوجود ، وفى الضوء ، الى آخر ما يلهيك عن أعظم المصاب وأكبر الألعاب . ولا غرو فقد قال الله فى حق الإنسان : « إنه كان ظلوما جهولا » ، وقال فى بيان طيشه : « خُلق الإنسان من عَجل » « وكان الإنسان عجولا » . وإن من ضعفه الذى خلق عليه جهله بضعفه ، « ولو عرف ضعفه لكانت تلك المعرفة دواء ضعفه » . وقد يفسد استعداد الإنسان حتى يكون الدليل عنده مثيرا للشبهة والشك ؛ والنور لا يزيد الخفاش إلا تخبطا وحيرة .

ولو تأمل المعتزلة قليلا لعلموا أن الموجودات تنقسم الى ما له الوجود من ذاته ، والى ما له الوجود من غيره ، وكل ما له الوجود من غيره فلا قوام له بنفسه ؛ بل إذا اعتبرت ذاته من

حيث هى كان عدما محضا . وقد عرف فى أحكام الممكن أنه ليس له شىء من ذاته ، وأن الوجود والعدم بالنسبة اليه سواء ، فلا بد أن يكون وجـوده وجميع أحواله مفاضة عليه من غيره ، وهو الواجب عز وجل .

أليس من أوضح الأدلة على أن العبد فى قبضة الحق يصرفه كيف شاء أنه تعالى أظهر للناس كل شىء ، وبين لهم كل طريقة ، ولـكن لا يمكنهم أن يسلـكوا من طرق السعادة الدنيوية أو الأخروية إلا ما أراده الله لهم : « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة » ، فبينهم كتاب الله ينطق بالهـدى ، وسنة رسوله تهـدى الى صراط مستقيم ؛ وكم سمعوا من نصائح الناصحين وإرشاد المرشدين ؛ وكل ذلك واضح المعنى ، عالى المبنى ، سافر المحيا غير مبرقع ولا محجوب ، فهو على طرف الثمام للمتناول ، ولـكنهم يمرون به فلا يرون ضوءه المتلالى ، ولا يسمعون نداءه العالى ؛ وكأن فى آذانهم وقراً ، وعلى أبصارهم غشاوة !

وكذلك مسألة السعادة الدنيوية . وانظرها إن شئت فى الأغنياء الذين لا يعرفون كيف يسيرون ، والأذكياء الذين قتلوا كل شىء بحثا ، وتجلت لهم كل الطرق بأوضح معانيها ، وأدق خوافيها ، وجميع مباديها ، وغاية مراميها ؛ فـكأن لسان القدرة الإلهية يقول : أوجدت كل شىء من وسائل الخير والشر والضلال والهدى ، وجعلته واضحاً بيناً على جانبى الطريق الذى تمرون فيه كل يوم ، تشاهدونه بأبصاركم ، وترون من يقع ومن ينجو ، ومن يرتفع ومن ينخفض ، ومع ذلك كله لا يمـكنكم أن تقتطفوا ثمرة من تلك الثمار ، أو تتظللوا بشىء من ظلال تلك الأشجار ، أو تتوسلوا الى سعادتـكم بشىء من تلك الوسائل التى جعلناها غـير محظورة ولا محجورة ، وكأنـكم لا تبصرون أو لا تعقلون ! أفلا تعرفون بذلك أنـكم مسيرون بقدرتنا نصرفـكم كيف نشاء ، ولم يمنعنا من ذلك كله جعل الأعـلام واضحات ، والطرق بينات ، والدلائل ناطقات ، ووجوه الأمور سافرات ، ليكون ذلك أدل على قدرتنا ، وأظهر فى بيان تصرفنا واختيارنا ، فنجعل الأشياء سافرة تمام السفور ، ونعطيكم الأبصار تخرق الستور ، ومع ذلك نجعلـكم لا ترون ذلك النور ، فلا تسلـكون ولا تستطيعون ، لتعلموا أن الله بكل شىء محيط ، وأنه على كل شىء قدير ؛ فأين تذهبون أيها المحجوبون ؟ ! سنستدرجكم من حيث لا تعلمون ؛ وإنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ؛ وبيدنا ملـكوت كل شىء وإلينا ترجعون .

ومع ذلك كله يتجرأ المعتزلة على القول بأن العبـد يخلق أفعال نفسه الاختيارية وإن لم يردها الله عز وجـل ، فتنفذ مشيئته دون مشيئة الله ! « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا » !

على أننا نرى كل أحد يحس بالقضاء القاهر ، حتى الملحدين والماديين ، وإن كان لهم عبارات

أخرى تغاير عبارات الموحدين ، فيقولون : لم تمكنا الظروف ، أو الظروف قضت بكذا ، ولم يساعدنا الحظ ، الى آخر عباراتهم الدالة على امتلاء نفوسهم بالقهر الإلهي والعجز البشري .

وأما تشبث المعتزلة بالبحث عن أسرار الله فى خليقته ، وحكمته فيما قضى وقدر ، فناشئ عن جهلهم بالله ، وجهلهم بأنفسهم ، فإن حل مسألة القدر على وجهها التفصيلى يستدعى أن تدرك كنه علاقة الخالق بالمخلوق . والفكر الانسانى له حد محدود يقف عنده ولا يتأتى أن يجاوزه ، وكأن من خواصه أنه لا يصل الى كنه الأشياء وحقائقها ؛ ومتى أراد ذلك اعترته الشكوك والأوهام ، فارتد طرفه خاسئا وهو حسير ، فليس له بالعلم إلا درجة مخصوصة يقف عندها ولا يتعداها ، ولذلك كانت الفلسفة فى كل زمان مثار الأوهام ، ومعشش الخيالات ، ومنبع الشبهات .

ولنتنزل قليلا فنقول : هل يمكن الطفل أن يعرف السر فى كل ما فعله أبوه ؟ وهل يتأتى تفهيمه ذلك ؟ ولو صح هذا للزم أن يكون استعداد الطفل كاستعداد أبيه ، وفهمه كفهمه أو قريبا منه . ولديك الوجدانيات التى لم نعرفها ولا ما يشابهها ، لا يمكننا أن نفهمك إياها ، كطعام لم تذقه قط ، ولا ذقت ما يشبهه ؛ ولذلك لا يمكننا أن نفهم الصبي لذة الوقاع ، ولا من خلق أكمه تلك الألوان المختلفة ؛ وهكذا الأشياء كلها . وأنت تعلم أن الحيوان البهيمى لا يبلغ بما له من الإلهام الى تعرف حكمة الحكماء ، وتصانيف الأذكياء ، ومعارف الفطناء ، ولا يتمكن من معرفة مقدار زيادتهم عليه ؛ فكذلك الحكماء لا يعرفون جميع حكمة الله تعالى ، ولا يستطيعون أن يعرفوا مقدار زيادتها على ما يعرفون . وقد انكشف لموسى عليه السلام ، وهو هو ، صحة ما فعل الخضر بعد القطع ببطلانه . ومما يجب الالتفات اليه أن الطبع فى هذه المسألة غالب بقوته على من لم يعارضه بتذكر كمال الربوبية ونقص العبودية ، ويتضرع الى الله فى إمداده بهدايته .

وينبغى للانسان فى هذا المقام أن يتذكر ما يعلمه من نفسه من شدة الجهل وقلة العلم ، وتردده فى الأمور وحيرته فى أشياء كثيرة ، ورجوعه عما كان عليه مرارا ، وندمه البالغ على كثير مما فرط منه ؛ وقد قلنا : إن الله تعالى وصفه فى كتابه العزيز بأنه ظلوم جهول .

وقد كان ينبغى أن تعلم من التجربة المتكررة ومن قصة الخضر عليه السلام ، التفاوت العظيم بين الخلق فى معرفة الدقائق وخفيات الحكم ومحكمات الآراء ومعرفة عواقب الأمور ، فكيف يكون التفاوت بين الخلق وخالقهم عز وجل !

ولنتنزل غاية التنزل فنقول : لو وهب الله عز وجل لبعض خلقه نصف علمه سبحانه لجاز أن يكون ذلك التأويل فى النصف الآخر ، فما أتى الانسان فى توهمه نفى الحكمة إلا من جهله بقدر علمه وعلم الله تعالى ، مع أن علمه الجلى بحكمة ربه كاف شاف ، وأن علمه بكمال ربه

فى جميع أسمائه الحسنى مع نقص العبد فى كل شىء وكثرة جهالاته وظلمه ، وخبث كثير من طباعه وغلبتها عليه ، يكفيه وازعاً عن اتباع سنة إبليس حيث نازع ربه فى حسن سجوده لآدم . وهذه هى سنة السفهاء من الناس الذين قالوا : « ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » . وقد قال سبحانه وتعالى لملائكته : « إنى أعلم ما لا تعلمون » . قال على كرم الله وجهه لمن سأله عن مثل هذا : اعلم أيها السائل أن الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه رسوخا . وقد قال مالك لمن جادله : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا لجداله ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ !

ولنقف هنا اليوم ، وموعدنا العدد الآتى ، إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء



فضيلة العمل والكسب

قال على رضى الله عنه : من مات تعبا من كسب الحلال ، مات والله عنه راض .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنى لأرى الرجل يعجبنى فأقول : هل له حرفة ؟ فان قالوا : لا ، سقط من عينى .

وروى أن داود عليه السلام مر باسكاف فقال له : يا هذا اعمل وكل فان الله يحب من يعمل ويأكل ، ولا يحب من يأكل ولا يعمل .

وقال أحد الحكماء : كسب الحلال ، والنفقة على العيال ، من أعمال الأبدال .

وقيل لبعض العلماء : ما المروءة ؟ فقال : العفة والحرفة .

وقال يزيد بن المهلب بن أبى صفرة : ما يسرنى أنى كفيت أمر الدنيا كله لئلا أتعود العجز .

وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان الحكيم خياطا . وقال ابن شوذب : كان إدريس عليه السلام خياطا .

السُّنَّة

طاعة ولاة الامور

عن جُنادَةَ بن أبي أُمَيّة ، قال : « دَخلْنا على عُبادةَ بن الصّامت وَهو مَريضٌ ، قُلنا : أصْلَحَكَ اللهُ ! حَـدِّثْ بحديث يَنفعُك اللهُ به سَمِعتَه من النبي صلى الله عليه وسلم . قال : دعَانا النبيُّ صـلّى اللهُ عليه وسلم ، فَبايَعْناه ، فقال فيما أَخَـذَ علينا أَنْ بايَعنا على السّمعِ والطاعةِ ، في مَنْشَطِـنا ومَكْرهِنا ، وعسرِنا ويسرِنا ، وأثرةٍ علينا ، وأَن لا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه ؛ إلاّ أَنْ تَروا كُفراً بَواحاً ، عندكم مِنَ اللهِ فيه بُرهانٌ » . رواه البخاري في كتاب الفتن .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمران : (١) بيان معناه إجمالا ؛ (٢) حكم طاعة ولي الأمر في الشريعة الاسلامية ، وبيان ما يترتب على مخالفته في السر والعلانية من الأضرار .

١ — أما معنى هـذا الحديث : فهو أن المسلمين في صدر الإسلام كانوا أحرص الناس على تعلم كل ما عساه أن يُصلح دينهم أو دنياهم ، وكانوا لا ينفكون عن البحث عن كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله ، ليكون لهم به أسوة حسنة . وهذا هو السر في نجاحهم وتفوقهم على الأمم القوية التي كانت في عهدهم .

لجنادة بن أمية رضي الله عنه ، ذهب لعيادة عبـادة بن الصامت وهو مريض ، فلم يترك الفرصة تمر دون أن يستفيد منه فائدة من الفوائد التي استفادها عبادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يحدثه ببعض ما سمعه منه عليه الصلاة والسلام ، وقال له : إن هذا الحديث ينفعك الله به ، لأن من ينفع النـاس بعلمه يناله من ذلك النفع قسط كبير ؛ فإن الله سبحانه قد وعد العلماء الذين ينفعون الناس بعلمهم وعداً حسنا في الدنيا والآخرة .

وفي ذلك حث على نشر الفضائل الدينية وإذاعتها بين الناس ، لأن الذين يعلمون شيئا من قـول رسول الله صلى الله عليه وسـلم أو فعله ويكتمونه ولا يذيعونه ، لا ينتفعون به على الوجه الـكامل الذي يرضاه الله ورسـوله ، بل هم مسئولون عن ذلك ومؤاخذون عليه إذا تعمدوا كتمانه أو سئلوا عنه فلم يجيبوا . ولقد تأدب جنادة رضي الله عنه فلم يقل لعبادة

ذلك ، لأنه يعلم أن عبادة لا يضن بنقل ما يعرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طيب خاطر ؛ وهـذا ما وقع فعلاً ، فإن عبادة قد حـدثه بحديث جامع لـكل ما يترتب عليه نظام الحياة الدنيوية والأخروية ؛ فقال له : إننا قد بايعنا النبي صلوات الله عليه على أشياء ؛ ثم ذكر له أهم هذه الأشياء ، وأعظمها قدرا ، وهو أمران :

(أحـدهما) : « السمع والطاعة » فى كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه ، فى جميع الاحوال التى يستطيعون فيها العمل بذلك ؛ وهو صلى الله عليه وسـلم قد أمرهم بكل الفضائل الخلقية التى يترتب عليها صـلاح معاشهم ومعادهم ، ونهاهم عن كل الرذائل الخلقية التى تضرهم وتضر المجتمع الانسانى .

(ثانيها) : « ألا ينازعوا ولاة الأمور » ولا يخرجوا عليهم فى أمر من الأمور ، إلا إذا أمروهم بالمروق من دينهم ، فإنهم فى هذه الحالة لا يستجيبون لهم ؛ وذلك لأن الخروج على ولاة الأمور وعدم تنفيذ أوامرهم مثار للفتن الضارة التى قد تذهب بكيان الأمة ، كما سنبينه بعد .

وقوله فى الحـديث : « فى منشطنا ومكرهنا » ، معناه فى حال نشاطنا وفى حال كرهنا . فالمنشط بفتح الشين : مصدر ميمى معناه النشاط ، يقال : نشط بكسر الشين نشاطا فهو نشيط . والمـكره بفتح الميم والراء : مصدر ميمى كذلك معناه الـكره بضم الـكاف وهو المشقة . وغرض عبادة أن يقول : بايعنا الرسول صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى حالة النشاط وحالة الـكسل ، فلا يحـل لمسلم أن يتبع العوامل المثبطة عن القيام بما أمره الله به ورسـوله من كسل وغيره .

أما قوله بعد ذلك : « وعسرنا ويسرنا » ، فمعناه أننا بايعنا الرسول صلوات الله عليه على السمع والطاعة والقيام بما يأمرنا به فى حالة اليسر وفى حالة العسر . وليس معنى هذا أن الرسول قد كلفهم بما هو خارج عن مقدورهم ؛ فإن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وإنما معناه أن يقوم كل فرد من الأفراد بما هو فى طاقته ، فمن كان معسرا لا يستطيع أن يبذل مالا فعليه أن يعمل بجوراحه السليمة التى يستطيع أن يستخدمها فى طاعة الله ورسوله ، وخدمة دينـه ووطنه ، كما ورد فى حديث آخر .

وقوله : « وأثرة علينا » بفتح الهمزة والراء والثاء ، أو بضم الهمزة وسكون المثلثة ، أو بكسرها مع الإسكان ، معناه الانفراد بالشيء والاختصاص به مع كونه مشتركا . والمعنى أنه لا يستأثر على أصحابه بما لهم فيه استحقاق . فهو يقول : بايعنا الرسول على ألا ننحرف عن العمل الذى يكلفنا الله به ورسوله ومن يلى أمرنا من أجل أن يمنعنا حقنا فى الغنائم أو المناصب أو نحو ذلك ويؤثر بها غيرنا علينا ؛ بل يجب علينا أن ننفذ الأوامر والنواهى بصرف النظر عن كل اعتبار .

وذلك هـو الفناء فى سبيل الإصلاح الاجتماعى والخلقى ، فان العامل فى سبيل الإصلاح ينبغى له أن ينفذ ما هو منوط به ، بصرف النظر عن كل ما يحيط به من عوائق ، فلا ينظر الى مصالحته الشخصية أيّا كان حالها ، ولا يبالى بالأمور المادية التى تحيط به ، بل يجب أن يكون كل همه منحصرا فى أداء ما هو مكلف به من خدمة المجتمع الذى هو فرد من أفراده بجد وإخلاص ، بصرف النظر عما وراء ذلك من متاع الحياة الدنيا وزينتها . وذلك فى الواقع أساس الإصلاح الاجتماعى ، فإن العامل الذى يريد أن يرضى الله عز وجل فى قـوله وعمله ، يجب عليه أن لا يتطلع الى ما وراء ذلك من مال أو جاه أو منصب ؛ ومن يفعل ذلك فقد أساء الى عمله المنوط به ، وأساء الى المجتمع الانسانى ، بل وأساء الى نفسه من حيث لا يدرى ، لأنه بذلك يكون قد أخل بأداء واجب من الواجبات المقدسة فى سبيل متاع زائل لا قيمة له فى الواقع ، وكان مثلا سيئا لمن عساه أن يقلده فى فعله فيتضاعف شره . ولعل كثيرا من الناس يغفلون عن هذا المعنى الجليل ، وهـذا الأدب الخلقى العظيم ، فيقصرون فى أداء واجباتهم لأنهم يرون فى ذلك تشفيا لأنفسهم من حيف لحق بهم ، ولـكنهم فى ذلك مخطئون كل الخطأ ، لأن الأعمال النافعة يجب أن تؤدى لذاتها ، وأن يقصد العاملون ابتغاء مرضاة ربهم بصرف النظر عما سواه .

أما قوله : « وألا ننازع الأمر أهله » ، فمعناه ظاهر ، وسيأتى بيانه بعد . وقوله : « إلا أن تروا كفرا بَواحا » فمعناه « كفرا ظاهرا » . تقول : باح بالشىء يبوح به بَواحاً ، إذا أذاعه وأظهره . وبعضهم يقول : يجب أن يكون اللفظ بؤاحا بالهمز ، لا بواحا . وعلى كل حال فالغرض منه مفهوم كما ذكرنا .

٢ — أما حكم طاعة ولى الأمر فى الشريعة الإسلامية فهى فرض مقدس لا يجوز لأحد من الناس أن يخرج عنه قيد شعرة ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . فطاعة ولاة الأمور مقرونة بطاعة الله ورسوله ، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة فى وجوب طاعتهم ؛ منها قوله صلى الله عليه وسلم : « السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ؛ وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر » . من حديث رواه ابن ماجه وغيره .

وهـذا الحديث الذى معنا يدل دلالة صريحة على أن طاعة ولى الأمر فرض مقـدس على المحكومين ، فإن عبادة يقول : إننا بايعنا الرسول عليه الصلاة والسلام على السمع والطاعة فى كل حال من أحوالنا ولو شق علينا فعله ؛ وبايعناه على أن لاننازع ولاة أمورنا فيما يأمروننا به ، بل ننفذه ولو لاقينا فيه عسرا ومشقة ، مادموا لم يامرونا بالخروج على ديننا .

وهذا المعنى يدور عليه نظام الأمة الإسلامية فى كل أدوار حياتها ، لأن الدين الإسلامى قد حذر المسلمين عن إثارة الفتن التى يترتب عليها فساد نظامهم ، مهما لاقوا فى سبيل ذلك من العنت والإرهاق والعسر والمشقة . فان الصبر على مثل هذا يوطد دعائم الوحدة ، ويثبت أركانها ، ويجعلهم فى مأمن من أعدائهم فى الخارج ، لأن الفتن الداخلية من شأنها أن تذهب بقوتهم ، وتضعف شوكتهم ، وتجعلهم عرضة للمغيرين دائما . على أن الصبر على ما قد يشعرون به من المكاره قد يكون فيه مصلحة آجلة لهم تخفى عليهم حقيقتها ، فليس من الصواب أن يخرجوا على سلطانهم لمجرد مشقة أو عسرة يجدونها منه .

هذا إذا كان فى أمر السلطان ونهيه خفاء ؛ أما إذا أمرهم بما فيه مصلحة ظاهرة يقوم عليها شرفهم وحفظ كيانهم ، فإنه يفترض عليهم أن يطيعوه فى تنفيذها طاعة عمياء ، مهما كلفهم ذلك من مشقة وحرج ، وبذل نفس أو مال . ذلك لأنهم فى هذه الحالة لم يشعروا بنتائج الأمور ، ولم يقدروا الفضيلة حق قدرها . مثلا : إذا أمرهم السلطان بإعداد العدة للقاء عدو أو اتقاء شر ، فانهم فى هذه الحالة يفترض عليهم أن يتلقوا هذا الأمر بالسمع والطاعة ، وأن يتعاونوا جميعا معه على تنفيذه ، وأن لا يجدوا فى أنفسهم حرجا من هذا الأمر بأية حالة من الحالات ؛ فان الله تعالى قد أمرهم بمثل ذلك الأمر صريحا ، قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ولقد كان لهم فى المسلمين الأولين أسوة حسنة ؛ فسيدنا عثمان رضى الله عنه بذل جل ماله لتجهيز جيش كامل فى وقت كان المسلمون فى ضيق وعسر . وكثير من المسلمين كانوا يأتون الى رسول الله يحملون كل ما تملكه أيديهم من متاع ويقولون له : هذا ما نملكه أتينا به لينفق فى سبيل الجهاد .

سار المسلمون الأولون على هذا المنوال من تضحية المال والأنفس والشهوات فى سبيل العزة والكرامة ومقاومة الأعداء ، فأصبحوا بذلك سادة العالم يومئذ .

وياحبذا لو اقتدى بهم من بعدهم فى هذا العمل الجليل ، وذلك الخلق الفاضل ، فانهم لو فعلوا ذلك لظلت لهم شوكتهم قائمة ، وعزتهم باقية خالدة . ولكن من الأسف الشديد غلب عليهم حب الشهوات والأنفس والأموال ، فضاعت بذلك شجاعتهم الأولى ، واستمرءوا عيش الذلة والهوان ، فضنوا بما يصون كرامتهم ، ويحفظ لهم عزتهم التى كانوا عليها !؟

عبد الرحمن الجزيرى

ذكرى هجرة محمد

صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه » . وقال تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » :

للحوادث الجسام رنين قوي على الأسماع حين ورودها عليها ، إذ تحدث برناتها القوية على السمع تكييفاً للنفس ، وتأثيرا على الروح والعقل ، فتجعل السامع ينتقل بفكره من حالته العادية الى حالة السمو والارتفاع الى الدرجة التي تجعله في مستوى من شاهد تلك الحوادث وكان منها على مرأى ومشاهدة . وأعظم حادث عرفه التاريخ الاسلامي ، حادث الهجرة التي انطلق فيها محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق من مكة خفية ، إذ خرجا من دار أبي بكر في الثلث الأخير من إحدى ليالي الصيف قاصدين الى يثرب ، وقد كانا يعلمان حمارّة القيظ ، وما تتلظى به رمال الصحراء المحرقة الفسيحة في تلك الآونة من الزمن ، ولكنهما لشدة إيمانهما وقوة يقينهما ومنتهى تضحيتهما من أجل غايتهما ، نسيا أهوال السفر ومتاعب السير ومشاق الرمال ، وهانت عليهما هذه الصعوبات المهلكة ، وتناسيا تلك الخطوب المدلهمة ، نظرا لأنهما قد ارتفعت أرواحهما ، وصفت نفوسهما ، ورقت أفكارهما الى درجة جعلت غايتهما منحصرة في الوصول الى سلامة الدعوة التي حملها الرسول وآزره عليها صاحبه أبو بكر الصديق .

ولم يكن التفكير في الهجرة والباعث اليها وليد الأسابيع والأشهر ، بل هو وليد السنين والظروف القاسية ، والحوادث المتتابعة ، التي أنبتتها الأحقاد والحسد في نفوس قريش ، وما خافوا عليه من زوال سلطانهم ، وعفاء عزهم ، وانمحاء سيطرتهم على أهل تلك الجزيرة ، وذلك لأنهم كانوا حراس الكعبة ، وبيدهم مقاليد البيت الذي تحج اليه العرب جميعها ، ويفدون اليه من كل صوب ؛ فاذاً تفكير محمد في الهجرة وبحثه عن مكان يبث فيه الدعوة قد جال بنفسه عقيب البعثة ، عند ما نزل عليه قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ، عند ما دعا أهله وعشيرته ليتخذ منهم عونا على نجاح دعوته وإبلاغ رسالته ، فما كان منهم إلا أن سخروا منه ، وكانوا حربا عليه وعلى ما جاء به من الدعوة الى عبادة الله وحده ، وترك السجود لأصنامهم التي ورثوا عبادتها عن آبائهم ، وكانت ينبوع المجد والفخار عندهم .

ولقد أخذ التفكير فى الهجرة يزداد فى نفس محمد يوما بعد يوم ، فكلما وجد من أهل مكة إعراضا عن دعوته ، ومعاكسة لها ، ازداد تفكيره واشتد بحثه فى إيجاد بقعة صالحة يغرس فيها شجرة الإيمان ، ويثبت فيها أصلها ويعلو فرعها ، بعد أن اشتد يأسه من إسلام أهل مكة ومن جاورها ، وبعد أن ردته ثقيف حين ذهب الى الطائف يلتمس من أهلها الظهير والمعين ، فما كان منها إلا أن أغرت به سفهاءها وصبيانها للسخرية منه ، والاستهزاء بما دعاهم اليه ، حتى لقد بلغ به اليأس والقنوط ؛ فجلس بعد جهد سفهاء قريش له عند حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة يحتمى به من عبث السفهاء وسخرية الأغبياء من أهل ثقيف ؛ ولقد جلس الى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران اليه والى ما هو فيه من شدة الكرب وظلمة الدنيا فى وجهه وضيقها عليه على ما هى به من رحابة وسعة ، حتى لقد دفعته هذه الحادثة إذ يئس من النصير والمعين الى أن يرفع أكف الضراعة الى الله تعالى ، ويفوه بقوله عليه السلام : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ، الى بعيد يتجهمنى ، أو الى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ! أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » !

ولم يكن نصيب محمد من ثقيف بأكثر مما كان نصيبه من كندة وكلب وبنى عامر وبنى حنيفة وغيرها من قبائل العرب التى اشتد أذاها وخش قولها له ، فقد قل نصيره ، واشتد أعداؤه ، حتى بلغ التفكير بهم الى العمل على إماتته مع من تابعه جوعا ، وكتبت بذلك صحيفة علقت فى جوف الكعبة تتضمن قطع العلاقات بين محمد وأتباعه ، وبين سائر قريش ، حتى لقد حرموا البيع والشراء بينهم ، وتوعدوا من خالف تلك الصحيفة أو عمل على نقض حرف مما جاء بها بالنذير الشديد والعذاب الأليم ، طمعا منهم فى أن يعدل محمد عن الدعوة التى جاء بها ، ويبقى على سلطانهم وعزهم ونخارهم فى تلك الجزيرة ، فكلما فشلت قريش فى مكيدة من مكائدها عمدت الى مكيدة أخرى .

ولقد كانت آخر تلك المكائد ونهاية السهام التى توجهها قريش الى محمد ، هو ذلك الاجتماع وتلك المؤامرة التى حدثت بدار الندوة ، إذ تشاوروا فى أمر محمد وكيفية الخلاص منه والقضاء عليه ، واستراحتهم من المخاوف التى ينتظرونها ، فأشار بعضهم بحبسه وتكبيله بالسلاسل والأغلال حتى ينحصر شره وتخمد نار دعوته وينساه أصحابه ؛ فعورض ذلك الرأى بأن أصحاب محمد لا يتركونه دون أن يخوضوا غمار حرب تصطلى نارها جزيرة العرب وتدور الدائرة عليها . وقال البعض الآخر : أخرجوه من مكة حتى تنقطع دعوته عن أهلها ويزول اتصاله بأتباعه ؛ فعورض ذلك الرأى أشد المعارضة لما كان يتوقعه المعارضون الذين

لم ينسوا بيعتى العقبة الصغرى والكبرى اللتين أبرمهما محمد مع أهل يثرب ؛ وكان المعارضون يعرفون شدة الوفاء والمناصرة من أهل يثرب الذين قالوا عند العقبة الكبرى ، وهم زعماء الأوس والخزرج ، قولة صدق يفدونها بالمال والولد والنفس والنفيس : « بايعنا على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » . فقد جال بخاطر المعارضين وطرقت آذانهم تلك المبايعة ، وما قطعته الأوس والخزرج على نفسها من مناصرة محمد ، والوقوف بجانبه ، والدفاع عن الحق الذى جاء به . كل هذه العوامل لم تغب عن أذهان هؤلاء المعارضين ، فاندفعوا لمعارضة هذا الرأى وقالوا : لا تخرجوه لأنه سيرجع عليكم مع أتباعه من أهل يثرب ، ويوقعون بكم شر البلاء وأعظمه .

وحينما عورض هذان الرأيان انبرى أبو جهل فى صلف وكبر وزهو ، لما عرف به بين أهله من قوة الشكيمة وشدة المعارضة والخصومة لمحمد وأتباعه ، وقال : الرأى أن نجمع من كل قبيلة رجلا جليدا فيضربوه بأسيافهم ضربة واحدة ، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على محاربة قريش كلها ، فيرضون بأخذ الدية . فانصاع الكل الى هذا الرأى ، وأخذوا يحبذونه .

وحينذاك صح العزم من الرسول صلى الله عليه وسلم على الهجرة ، حماية للدعوة ؛ وأمر على بن أبى طالب أن يبيت فى مضجعه ، وأن يتسجى ببردته ، فبادر على الى طاعته ، مع اعتقاده أن القوم يتربصون الفرصة لاقتحام الدار لقتل محمد ، ولكن عليا لم يعبأ بهذه المخاطر ، بل عزم على التضحية بنفسه افتداء لمحمد ودعوته ، وصحب النبى أبا بكر فى السير حتى دخلا غار ثور ، ولم يفتهما أن قريشا لا بد أن تطلبهما فى غداة اليوم الذى تركا فيه مكة ، وقد تحقق ذلك ، فإن قريشا ذهبت تطلبهما ، وحلقت حول الغار الذى استترا فيه ، وفى تلك اللحظة من الزمن اشتد خوف أبى بكر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا نزل قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه » .

ولما اطمأنت نفسهما من خوف قريش ، واصلا السير حتى وصلا الى المدينة التى تهيأ للقائه أهلها ، واستمدوا جميعا من يهود ومشركين ومن آمن به من الأوس والخزرج ممن بايعوا بيعة العقبة الكبرى والصغرى ومن تابعه على الإيمان .

وهنالك اشتد الزحام ، وخرج الكل يجتلى طلعة هذا القادم العظيم . وكان أول ما فكر فيه الرسول حينما دخل يثرب ، أن شرع فى بناء المسجد ، ومسكنه الذى يأوى اليه . وطبيعى من محمد صلى الله عليه وسلم أن يجعل أول تفكيره بناء المسجد الذى يؤدى فيه الركن الأعظم من أركان دعوته ، والعماد القوى ، ألا وهو ركن الصلاة ، فانها عماد الدين وقوامه .

ثم فكر بعد ذلك فى جمع كلمة أهل مكة ، وإزالة ما بينهم من اختلافات من أجلها اشتدت الحروب وطال أمدها ؛ فهو واجد أمامه الأوس والخزرج اللذين نشأت بينهما الحروب التى اختتمت ببعاث ، أكبر حرب عرفها الأوس والخزرج ؛ ووجد أمامه اليهود تحتل بقاعا كثيرة فى المدينة وحولها ، وتحتكر التجارة ، وغير هؤلاء وهم المهاجرون الذين تبعوه فى الهجرة وتركوا أموالهم وأولادهم بمكة . إذاً لا بد لمحمد من أن يعمل على جمع الكلمة ومحو أسباب الخلاف .

ولقد وفق الى طريق يحقق له بعض ما أراد ، وذلك هو طريق الإخاء بين المهاجرين والأنصار ، فقد آخى بين نفسه وبين على بن أبى طالب ، وبين عمه حمزة ومولاه زبير ، وبين أبى بكر وخارجة بن زيد ، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجى ، وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إخاء رتب عليه الرسول أحكام إخاء الدم والنسب . وبهذه الوسيلة استطاع محمد أن يوحد بين المسلمين القاطنين بيثرب ، واستطاع أن يقضى على الدسائس والوقيعة بين الأنصار والمهاجرين ، واستطاع أن يجعل للحرية فى العقيدة منزلة محترمة لا يقدر أحد على مهاجمتها ، ولا يعذب صاحب الرأى ولا صاحب العقيدة من أجل المخالفة وترك ما ورثه من التقاليد وعبادة الأوثان .

وفكر بعد ذلك أن يوثق الرابطة بين المسلمين واليهود حتى يأمن من شرهم على الدعوة ، فأبرم بينه وبينهم معاهدات حسن الجوار وعدم العدوان وتمكين الحرية ، وبذلك استطاع النبى أن يتفرغ لبث تعاليم الاسلام ، ويوثق الروابط بين المسلمين ، ويزيد المودة بينهم والإخاء ، بتعاليمه ومثله العليا التى كان يضربها لهم بأفعاله وأقواله ، إذ يقول فى بعض خطبه : « من استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشقة من تمر فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها » . وكان يضرب لهم الأمثال بتواضعه وزهده فى الحياة ، وما عليه من التقشف فى المعيشة من مأكل وملبس ومسكن .

ولقد ظهرت تعاليمه واضحة جلية حينما سأله على بن أبى طالب عن السنة التى يرتضيها النبى صلى الله عليه وسلم لنفسه فقال : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة »

كل جملة من هذه الجمل تصلح دستوراً تبنى عليه أقوى الحضارات وأرقاها ، إذ بالعقل وحده تستطيع الحضارة والمدنية أن تقوى دعائمهما ، فما بالك إذا انضم الى العقل سلاح العلم ؟ وما بالك أيضا إذا انضم إليهما جميع هذه الصفات التى جملها الرسول صلى الله عليه وسلم من سنته وأصول تعاليمه ، التى أخذت تزداد يوما بعد يوم فى المدينة وما جاورها ، مما أوقع الرعب فى قلوب

اليهود ، وجعل قوتهم تضعف يوما بعد يوم ، ودسيستهم تشتد بين المسلمين دون جدوى ولا فائدة ، حتى لقد خيل إليهم أن يستميلوا محمدا ويعملوا على إخراجه من المدينة موطن عزهم ومحط تجارتهم بدعوى أن الرسل جميعا قد استقر بهم الأمر ببيت المقدس ، فأولى بمحمد أن يترك المدينة وينزل بيت المقدس مهبط وحى الأنبياء ومحط تعاليمهم . وهنالك فكر محمد مليا فى القضاء على هذه المكيدة ، وقلب وجهه فى السماء مبتغيا الى الله الوسيلة ، وفى تلك الآونة حقق الله مراده ، واختار طريق الخلاص من هذه الفتنة ، وأنزل عليه قوله تعالى : « قد نرى تقلُّبَ وجهك فى السماء فلنوَلّينّك قبلة ترضاها ، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولُّوا وجوهَكم شطْره » .

وبذلك خاب رجاء اليهود فيما أملوا ، وتبين لهم فشل المكيدة التى دبروها ، وتحطمت آمالهم فوق الصخرة التى وضعها الرسول ليبنى عليها تعاليمه ، ويثبت عليها دعائم الإيمان .

وبعد كل هذه المحاولات والقضاء عليها ، فكر محمد طويلا فى مكة ومن ترك بها من أهله وعشيرته ، وفكر طويلا فيما صنعته قريش به من الأذى وما أذاقوه له ولأتباعه من العذاب والهوان ، وفكر أيضا فى تمكين دعوته وبثها فى جزيرة العرب وما جاورها ، بل فكر فوق ذلك فى محو الشرك والوثنية والعمل على توحيد الله والإخلاص له ، وحدد عبادته بما فى قوله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كُفُواً أحد » .

هذا هو أساس التوحيد الذى دعا إليه ، ومن أجله آذته قريش ، ومن أجله طاردته ثقيف وكندة ، ومن أجله اجتمع المشركون فى دار الندوة مؤتمرين على قتله ، ومن أجله ترك مكة ملتمسا المدينة ، ومن أجله تحمل كل المصاعب وضحى بكل شىء .

ولم يترك الرسول أمر مكة وكفار قريش ، وكذلك لم يترك أهل مكة محمدا دون أن يعملوا على الكيد له ، وبذلك وقعت الغزوات بينه وبينهم ، من بدر ، وأحد ، وغيرها ؛ وحصل بينه وبينهم صلح الحديبية الذى نقضت قريش ما جاء فيه وما قطعته على نفسها من عهود . ولقد كانت نتيجة النقض أن لا يجد محمد بداً من القضاء على قريش ، وأن يضع الحد الفاصل ويقول الكلمة النهائية بينه وبينهم ، وذلك بأن يدخل مكة ويقرر مصير أهلها حتى يأمن شرهم ، وقد أعد جيشا عرمرما بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، وزحف به الى مكة قاصدا فتحها دون إراقة دم .

ولما اقترب منها خرج اليه عمه العباس بن عبد المطلب ، وسفيان بن حرب ، وبديل ، وغيرهم يستطلعون قوته ومعداته ، وينظرون الى ذلك الذى خرج من بلدهم مكرها مغلوبا على أمره بالأمس ، وإذ به يعود اليوم قويا فاتحا عزيزا مكرما يحمل راية الحق والدين الذى

دعاهم اليه ، فما كان منهم إلا المعاندة والخصومة . ولقد دخل أنصار الله الى مكة فلم يجدوا منها مقاومة ، اللهم إلا بعض مناوشات وقعت بين جيش خالد بن الوليد ومن لقيه من أهل مكة .

ولما استقر المقام بمحمد صلى الله عليه وسلم أخذ يستعرض صحيفة الماضى والذكريات الأليمة التى لحقته فى هذه الأمكنة من قريش ، والعذاب الذى ذاقه ؛ ولكن نفس محمد أعلى من أن ينتقم لنفسه ويثأر لها ، فقد شكر الله تعالى أن هيأ له الرجوع الى هذا البلد الأمين مكة ، أم القرى ، ومهبط وحيه ؛ ثم أخذ يطوف بالكعبة التى تشوقت نفسه إليها ، ولم ينقطع تفكيره عنها .

ولما قضى طوافه وقف على باب الكعبة وتكاثر الناس حوله ، فقام فيهم خطيبا يتلو عليهم كتاب الله ، ويبين لهم حدوده وتعاليمه ، وأوامره ونواهيه ، ثم تلا عليهم قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . ثم سألهم بعد ذلك فقال : يا معشر قريش : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء .

لقد عفا محمد صلى الله عليه وسلم عن الأعداء بعد أن ملك ناصية أمرهم ، واستولى على أرواحهم ، وأموالهم ، وما ذلك إلا لأنه قد وصل الى غايته ، وأدى رسالة ربه ، فليس فى نفسه حفيظة أو غيظ ، أو حقد أوحسد ، لأن روحه العالية قد سمت فوق الحفيظة والغيظ ، والحقد والحسد .

من أجل هذا كله كانت الهجرة وبواعثها من الأمور الجسيمة التى تحول الاسلام بسببها من حالة الركود والمعارضة بمكة ، الى حالة النشاط والجد والعمل بالمدينة : وهكذا كان الضرر والأذى والعنت الذى لحق النبى صلى الله عليه وسلم بمكة حتى أجلاه عنها سبباً فى الخير ، ونصرة الحق ، وإعلاء كلمة الله . وصدق الله وحقت كلمته حيث يقول : « وَعد اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفنّهم فى الأرض كما استخلَف الذين من قبلهم ، وليمكنّنّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، ولَيبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً » ؟

عبد الله مصطفى المراغى

وكيل قسم المساجد بوزارة الأوقاف

نظرات فى المذاهب المتطرفة

الشيوعية وسوء أثرها فى الهيئات الاجتماعية

نظرنا فى المقال السابق فى الناحية الاقتصادية من الشيوعية ، وهى الناحية التى يحاولون أن يفتنوا الفقراء من قِبَلها ؛ وقد رأيت أن سيادة هذا النظام الاجتماعى يزيدهم فقرا على فقرهم ، وإذا تمادى بهم حل وحدتهم ، وأتى على جميع حوافظهم الاجتماعية . واليوم ننظر فى هذا المذهب من ناحية مناهضته للدين ، وهى أخص ماتعنى به هذه المجلة :

عرّف الدينَ موجد الشيوعية (كارل ماركس) الاسرائيلى الألمانى فى بعض كتبه فقال : « الدين عبارة عن تنهدات الجماعات المظلومة » . يريد بذلك أن يقول : لو ارتفع الظلم عن هذه الجماعات لما وُجد الدين .

ويقول الذين يدعون الى هذا المذهب : « فى كل مجتمع قائم على أساس الطبقات لابد للدين من أن يولد تحت تأثير النير الاقتصادى ، ويكون إحدى قوى الضمير الاجتماعى . أما عندنا فإن الشروط الاجتماعية التى كانت تنشأ عنها الأفكار والعقائد الدينية قد اضمحلت وأصبح الدين كائناً ميتاً لا تأثير له فى الاقتصاد وفى النظام الاجتماعى » .

ونحن نبادر الى دحض هذه الآراء قبل الانتقال الى غيرها حتى لايلتبس الأمر على القارئين :

أما قول مؤسس الشيوعية : إن الدين هو تنهدات الجماعات المظلومة ، فهى عبارة شعرية ليس فيها عبقة من علمى النفس والاجتماع ، فقد ثبت أنه يستوى فى عاطفة التدين المظلومون وغير المظلومين ، بل ثبت أن غير المظلومين من كبراء الأمم وأثريائها وسراتها ، أكثر تدينا من رعاعها وغوغائها ؛ وقد تقرر أن منهم من تنازلوا عن عروشهم وخرجوا عن أموالهم تورعا وتزهدا ؛ وفى الأرض اليوم جماعات غير مظلومة تعيش فى ظلال الديمقراطية الوارفة الظلال ، أشد تمسكا بدينها من الأمم التى تعتبر فى عرف الشيوعيين مظلومة .

وأما قول أشياع الشيوعية من أن كل مجتمع قائم على أساس الطبقات يتولد فيه الدين تحت تأثير النير الاقتصادى ، فغير صحيح ؛ فقد ثبت علميا أن الدين تولد فى الجماعات الأولية الساذجة ، قبل أن يُعرف نظام الطبقات فيها ، بل قبل أن يكون لها جماعة بالمعنى المعروف اليوم . أعنى بهذا أيام كان كل إنسان يعمل لنفسه ولا يسأل عن غيره ، ويجهل النظم الاجتماعية كل الجهل . فاذا كان الشيوعيون يلاشون كل النظم المعروفة فلا يؤملن من وراء ذلك أن يسقطوا سلطان الدين ، لأنه لا يستمد هذا السلطان من جوع الجماعات ، ولا من وقوعهم تحت براثن

القادة الظالمين ، ولكنه يستمده من أشرف عواطف النفس ، وأكرم غرائز العقل . وقد عرف بالمشاهدة أن الانسان إذا كانت قواه مستوعَبة فى طلب القوت ، ومحاولاته وقفا على فتق الحيل للوصول اليه ، ضعف سلطان الدين عليه ، ولم يجد وقتا للنظر فى نفسه ومصيرها ، وحياته وينبوعها ، ولا للفكر فى آدابه ونظامها ، وسيرته وقوامها ؛ وكثيرا ما أداه شظف العيش الى الكفر . هذه حقائق يمكن الاهتداء اليها بالمشاهدة ، فانك حيث تصادف الفاقة والعُدْم تجد خمود الشعور ، وهمود العواطف ؛ وحيث تؤانس اليسار والخفض ، تلفى التوق للسمو الأدبى ، والحنين لاختراق حجب الغيب لتنور الأسرار العلوية . وهل الدين فى حقيقته غير الانتهاء الى المثل العليا فى الأدب النفسى والمعرفة ؟ وأين هما من الجائع المكدود ، والمعدم اللاصق بالتراب ؟

فان تخيلت كائنا ميتا تسميه الدين ، فهو عند الجماعات المنكودة الحظ ، الواقعة تحت كلاكل الظلم ، لا عند الجماعات التى نالت حظها من الرغد ، وفرغت من هموم الكد ، ووجدت عقولها وقتا للنظر والتأمل ، واستعدت نفوسها للترقى والتكمل .

ويقول أنصار الشيوعية :

« إن بقاء المعتقدات الدينية يقوِّى بواسطة السلطة الإلهية والدينية جميع النزعات الرجعية فى أفكار الناس ، ويستبقى العادات القديمة ، ويعزز الميول العدوانية نحو النساء ، ويخلق شريعة العبودية والتعصب ، ويوطد أصول الرأسمالية » .

نقول : من حسن الحظ أن الذين يقومون بهذه الفلسفة هم فى أوربا لا فى مجاهل أفريقا ، ولا فى سهوب الأقيانوسية ؛ وليس فى العالم مظهر أروع ، ولا مشهد أكمل ، من الأمثال التى تضربها شعوب أوربا فى التخلص من النزعات الرجعية ، والوراثات التقليدية ؛ وفى تحرير النساء ومنحهن حقوقهن الطبيعية ؛ وفى تحطيم أغلال العبودية ؛ وفى تلطيف سلطان العصبية ، وتعديل الأصول الرأسمالية ، لتوافق المصالح الاقتصادية ، ولا تتحيف حقوق الضعفاء فى الهيئة الاجتماعية .

لا أظن أن عهدا من عهود البشرية تجلت فيه روح الإنشاء والتجديد فى كل مجال من مجالات النشاط العلمى والاقتصادى والاجتماعى ، مثل تجليها فى الغرب فى القرنين الأخيرين :

فقد تطورت العلاقات بين الحكومات والشعوب ، وبلغت أرقى ما يمكن أن تبلغه من الثقة بين حاكم ومحكوم فى هذه الحياة الأرضية .

وتهذبت الصلات بين أصحاب الأموال والعمال ، حتى اعتبر العمل ورأس المال عاملين متساويين فى الحقوق ، فلم يعد العامل مستعبدا لصاحب المصنع ، ولا عالة عليه ، ولكن

شريكا له فى الإنتاج . لذلك اعترفت له الحكومات بالنقابات التى تضمن حقوقه الطبيعية ، وتهيمن على مصالحه الاقتصادية ، وسمحت له بالدفاع عن تلك الحقوق والمصالح بكل ما تسمح به لسواه فى حدود النظام .

واندفعت تلك الأمم فى ميدان الترقيات المادية والروحية طليقة حرة ، زارية بالرجعية والرجعيين ، والتقليد والمقلدين ، حتى كادت تقطع الصلة بين القديم والحديث .

وبالغت فى تحرير النساء حتى اتهمت بمحاباتهن ، وبث روح التمرد فى قلوبهن ؛ وليس بعد هذه الدرجة من مزيد إلا إذا أريد قلب الأوضاع الطبيعية بجعل الرجال تحت قيادة النساء ، وليس هذا من الإصلاح فى شىء .

فلا أدرى بعد هذا كله معنى لتبجح الشيوعية بمبادئها الجديدة ولم تبلغ الجماعات التى أخذت بها بعض ما بلغته الأمم التى نذكرها ، وكان المعقول أن تعطى العالم مثالا فى تفوقها ، وفى سرعة تطورها ؛ فأى سبق تدعيه عليها ، وأى تخلف عنها تعيرها به ، وهى لا تحفظ وجودها فى عقر ديارها إلا بسيف القهر ، تقطع به وتين كل من تحدثه نفسه برفع نيرها عن عاتقه ؛ وتلك الأمم تعيش فى بحبوحة الحرية ، لكل منها الحق أن تنتقد حكومتها ، وأن تسقطها وتقيم سواها متى تعدت إرادتها ، لا تعرف حكم الإرهاب ولا يعرفها ، سلطانها الإجماعى فوق سلطان آحادها ، رضيت بهذا الحظ الموفور من كرامتها ، واتجهت لبلوغ غايات المثل العليا بالعلم والعمل على سجيتها .

لعل الذى أطال من لسان الشيوعية ضد الدين الى هذا الحد ، أن عامة الأمم وجهلتها لا يزالون يدينون بالخرافات العتيقة ، ويحافظون على ضلالات الأولين لا يريدون عنها حولا ، ولكن أصحاب البصر من تلك الأمم يرون ذلك ويدأبون على إصلاحه بوسائل تلائم الطبيعة البشرية ، من طريق ترقية مداركهم ، ورفع مستوى عقليتهم ، كل ذلك مع عدم العدوان على العاطفة الدينية التى اعترفت الفلسفة أنها من لوازم الفطرة البشرية ، وأنها لارتكازها على أرفع مميزات النفس لا يمكن ملاشاتها إلا باسقاط الإنسان الى حضيض الحيوانية ، وإلهائه عنها بالمطالب الجسدانية ، وهو جهد محكوم عليه بالضياع ، لأن الفطرة الانسانية تعود فتتنبه للنظر فى ذاتها وعلاقتها بالوجود ، فتستيقظ العاطفة الدينية من سباتها ، وتبحث عن مقوماتها من العقائد والتقاليد . فاذا أصر الشيوعيون على مقاومة هذه الميزة الفطرية فى النفس البشرية بالقوة ، أداهم ذلك الى ارتكاب ضروب من العسف تترفع أية حكومة متمدنة عنه .

ولكن لم هذا العداء كله للدين ؟

لو كان كل أمة ذات دين ترزح تحت كلاكله ، ولا تنتعش من كبوتها حتى تتخ[illegible] منه ، كان للشيوعيين عذر فى العمل على ملاشاته فى جماعاتهم ، ولكن المشاهد أن الدين لم يمنع ارتداء

الأمم الى أرفع درجات المدنية فى خلال العهود الانسانية كلها ، بل شوهد أن منها من لم ينهض بعد جمود طال عليها العهد فيه إلا على يد دين ، كالأمة العربية ، فقد نفث فيها الاسلام روحا عالية ، فأسست أعظم دولة عرفها تاريخ البشر ، وبلغت من المدنية الى أوج لا يزال مضرب الأمثال الى اليوم ؛ وهذه الأمم المعاصرة لم تمنعها أديانها ، ولا أوهام عامتها ، من بلوغ الغايات البعيدة من العلم والفلسفة والمدنية . ذلك لأن هذه الأمم الحرة الرشيدة بدل أن تقيد حرية الضمائر ، وتنشىء لحكومتها هما كبيرا من هذه الناحية ، يدفعها الى ضروب من التعسف ، قطعت ما بين الحكومة والكنيسة من الاتصال ، فاقتصر سلطان العقائد على الحيز الشخصى ، واتسع للمجتمع بجملته مجال التطور والارتقاء غير مقيد بقيد ، فلم يقف فى توثباته عند حد .

فالمذهب الشيوعى لم يكفه أن تتولى حكومته توزيع الأرزاق على الأفراد ، وتقييد حريتهم فى الاستثمار والادخار ، فخول نفسه فوق ذلك الحق فى تقييد عقولهم ، وحصرها فى دائرة يحدها لهم . وهذه سيطرة لم ترضها الانسانية من قادة الدين أنفسهم ، فبذلت فى سبيل التخلص منها أرواح أبنائها ، مع أنهم كانوا يريدون أن يمسكوها فى دائرة العقائد الدينية التى تقدسها ولا ترى لها حياة بدونها ، فهل تقبلها من قادة الشيوعية وهم يرمون الى ملاشاتها ، والتعفية على آثارها ؟

إن الطبيعة البشرية قد أبت السيطرة كما رأيت فيما تهوى ، فهل يطوف برأس متخيل أنها تقبلها فيما لا تهوى ؟

فهذا التورط الشنيع الذى تتكلفه الشيوعية وتحتفظ به فى سيل عرم من دماء البشر ، فى سبيل اجتثاث جرثومة الدين من قلوبهم ، لا يعقل أن يدوم ولو حققت لهم حلم الفردوس الأرضى ، فليس الانسان بالكائن الذى إذا امتلأ بطنه بالطعام اكتفى بذلك ولم يعد يسأل عن علاقته بالوجود ، ولا عن المثل الأعلى للحياة ، ولا عن مصيره بعد الموت ، ولا عن غذائه الروحانى الذى يحس بحاجته الماسة اليه . فالشيوعية تريد الانسان على أن يكون حيوانا لا تبعد همته عن محيط كرشه ، وقد خلق إنسانا لا تقطعه الدنيا عن البحث فى حقيقة نفسه ، وعلة وجوده ، وعلاقته بمبدعه . وهل الدين غير هذه الميول الفطرية فيه ؟ فاذا كان من المحال تغيير الفطرة ، فمن المحال كذلك هدم الدين ؟

محمد فريد وجدى